دَرْكُ الهُدى

في

اتباع الفَتى

كتبها

D عمر بن محمود أبو عمر

أبو قتادة الفلسطيني

ـ حفظه الله تعالى ـ

النور للإعلام الإسلامي

دَرْكُ الهُدى

في

اتباع الفتى

الطبعة الأولى
١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي
Al Nur Islamic Information
Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام مسلم بن الحجاج في «صحيحه»[1] في كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغُلام، قال: حدَّثنا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ . حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ. فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَماً يُعَلِّمُهُ. فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ، رَاهِبٌ. فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ. فَأَعْجَبَهُ. فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ. فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ. فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ. فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ. حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا . وَمَضَى النَّاسُ. فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ، الْيَوْمَ، أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى. وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى. فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلُّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ. فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ. فَقَالَ: مَا هَهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا

[1] «صحيح مسلم»: ١٨/١٠٤/ح٧٤٦٠ .

يَشْفِي اللهُ. فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ. فَشَفَاهُ اللهُ. فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ. فَجِيءَ بِالْغُلَامِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ. فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ. فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا. فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُرة، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ. فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ.

وتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي. ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ. ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ ارْمِنِي. فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ. ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ. فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ. فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ، وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ. وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا. فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا. فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي. فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

ورواه أحمد في «مُسنده»[1] في «مُسند صُهيب» قال حدثنا عفان حدثنا حماد به.. وألفاظه وألفاظ هدَّاب واحدة إلاَّ ألفاظ يسيرة.

وأخرجه النسائي في «الكبرى»[2] عن أحمد بن سلمان عن عثمان عن حماد، ومن طريق حماد بن زيد كِلاهما عن ثابت به. قال ابن كثير: واختصر أوله.

ورواه الترمذي في «سُننه»[3] في تفسير سورة «البروج» قال: حدثنا مَحمُودُ بنُ غَيْلاَنَ وعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ ـ المَعْنَى وَاحِدٌ ـ قالاَ: أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَن مَعْمَرٍ عَن

---

1 «مُسند أحمد»: ٢٧/٧/ح٢٣٥٤٠.
2 «سنن النسائي الكبرى»: ٥١٠/٦/ح١١٥٥٧.
3 «سنن الترمذي»: ٣٣٤٠.

ثَابِتٍ البُنَانِيِّ عَن عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ أَبي لَيْلَى عَن صُهَيْبٍ، قال: «كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا صَلَّى العَصْرَ هَمَسَ - والْهَمْسُ في قَوْلِ بَعْضِهِمْ تَحَرُّكُ شَفَتَيْهِ كأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ. فَقِيلَ لَهُ إنَّكَ يا رسولَ الله إذا صَلَّيْتَ العَصْرَ هَمَسْتَ. قالَ: «**إنَّ نَبِيًّا مِنَ الأنْبِيَاءِ كانَ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ فقالَ مَنْ يَقُومُ لِهَؤلاَءِ؟! فأَوحَى الله إلَيْهِ أَنْ خَيِّرْهُمْ بَيْنَ أنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وبَيْنَ أنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فاخْتَارَ النِّقْمَةَ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفاً**» قالَ: وكان إذَا حَدَّثَ بِهذَا الحَدِيثِ حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيثِ الآخَرِ قالَ: فذكر القصة (مع اختلاف) وقال في آخره: يَقُولُ الله تبَارَكَ وتعَالَى فِيهِ: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥** ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ **ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ** ﴾. قَالَ: فَأَمَّا الغُلاَمُ فَإِنَّهُ دُفِنَ، قَالَ فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وَإِصْبَعُهُ عَلَى صدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ» .

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وفي تفسير ابن كثير رحمه الله كلامٌ طويلٌ فيه فوائد، يَرجع إليه مَن أحب، ولولا أنَّ الكتاب مشتهر منشور بين النَّاس لطلبتُ وضعه هنا، ثم إنَّه ليس مُرادي هنا إلاَّ فوائد الحديث التي تنفعُ أهلَ هذا الزمان ونوازلهم وحوادثهم، وأما مسائل السند ومباحثه فلها مواطن أُخرى.

وقد اخترتُ ألفاظَ الإمامِ مسلم، وهي قريبةٌ بل عين ألفاظ الإمام أحمد والطبري رحمهم الله جميعاً، وفي كلٍّ خيرٌ، ولم أشأ التعليق على اختلاف الألفاظ حتى لا أُشغل القارئ بغير ما يُوصله إلى المُراد، إذِ الخلاف بين الألفاظ لا يُؤثر شيئاً في المعنى.



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

تمهيد

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:ـ

فهذا حديثٌ عظيم النفعِ، فيه من الفوائد للمُهتدين والدُّعاة والمجاهدين، إذ أنَّ حالَ هذا الفتى هو حال أهل الحق في زمان الفِتن والابتلاءات، يُصيبهم ما أصابه وأصاب الُمهتدين معه وبه، وإذا كان الأمر كذلك فإني رأيتُ أن أشرحه على معنًى يُبرز هذه المعاني، فينتفع به أهل الإسلام عموماً وشبابه خُصوصاً في سَيرهم إلى الله تعالى، إذ خُلُوَ قلب الُمهتدي من هذه المعاني عند وُقوع سُنن الطريق في الهداية والدعوة والجهاد يُردي المرءَ في ظنون الباطل، فيتلقفه الشيطان إغواءً وإفساداً وإضلالاً، والمرء لا يكفيه أن يعلمَ الحق في نفسه بل لا بدَّ من معرفة ظرف هذا الحقِّ وسُننه، وهذا مِن العلم الواجب، إذ سياسة العِلْمِ كالعِلْمِ وُجوباً، وسُنن العِلْمِ مثلها، فالأمور القَدرية لأمرٍ مِن الأُمور إن وقع فيها الجهل عاد أمر هذا الجهل بالإفساد على نفس الأمر، ولذلك كانت قصص الأنبياء في القرآن أكثرها يحكي عما يقع للأنبياء من ظروفٍ وسُنن الطريق، وهذا ما كان يعظ به الرسول ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم في مكة المكرمة كما في حديث

خباب بن الأرت رضي الله عنه كما سيأتي في شرح الحديث إن شاء الله تعالى[1]، بل إنَّ مِنَ العِلْمِ الواجب أنْ يعلمَ المرء سنن الحياة وأقدارها، كتلازم الألم فيها، وكتعاقب العسر واليسر، وسنن التدافع، وغيرها من السنن التي يجب العلم بها لما علم أنَّ التكوين والأقدار هي من أعظم الأبواب لمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ثمَّ لارتباط هذه الأقدار بواجباتٍ شرعية، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ٢﴾ [الملك: ١ ـ ٢].

الأقدار المُلازمة للحقِّ دليلٌ على صِدقه، كما أنَّ الأقدار المُلازمة للباطل دليلٌ على كذبه، ولذلك كان مِن عَقْلِ هِرقل وهو يسأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ أن سأله عن شرائعه، وعن أحواله وأحوال أصحابه القَدرية، فسأله عن أتباعه: هل همُ الفقراء أم الأنبياء؟ وهل يزيدون أم ينقصون؟ وسأله عنِ القِتال بينه وبين أعدائه، وعن آبائه هل كان فيهم مِن ملك؟ وأمورٌ أُخرى عَلِمَ من خِلالها صفة النبي ﷺ وأنه صادقٌ أمينٌ[2]، وهذه من موازين العلماء في معرفة الرجال والدُّعاة، يُعرفون مِن خِلال أقدارهم وأحوالهم صِدقهم من كذبهم، وهذا بابٌ عظيم النفع، وهو شطرُ معرفةِ الحقِّ في نفسه، ومِن سُوء جهل النَّاس في هذا الزمان أن هربوا مِن الحقِّ مخافةَ أقداره المُلازمة له، بل إنَّ بعضهم جعلَ ما يقع لأهل الحقِّ مِن أحوالٍ سبباً للتنفير منهم وغمز دينهم واتهامهم بالباطل، وليس هذا من عجيبِ الأمر، فإنَّ هجرَ النَّاس للكتاب والسُّنة وسيرة الصالحين على المعنى الصحيح يُؤدي لهذا الشرِّ وأعظم منه، ولا يغرنك الشعارات التي تملأ

---

[1] لقد شرحه الشيخ حفظه الله تعالى، وبارك فيه وفي علمه ـ في رسالة مستقلة بعنوان: «**طيب المقال في حديث الاستعجال**، شرح حديث خباب بن الأرث Z : «**ولكنكم تستعجلون**». فارجع إليها غير مأمور.

[2] انظر: «صحيح البخاري»: ١/٧/ح٧، ٣/١٠٧٥/ح٢٨٧٤، ٤/١٦٥٧/ح٤٤٣٥. و«صحيح مسلم»: ١٢/٨٣/ح٤٥٦٢ .

الساحات بوجوب العودة للكتاب والسنَّة، ولا بمثلها التي تدعو لإتباع السلف الصالح، فما هي إلاَّ ألفاظٌ وأسماءٌ لم تكن هذه في يومٍ من الأيام في تاريخ البشرية نافعة للتغيِّير إلاَّ بمقدار كونها معاني لحقائق في القلوب والنفوس تهدي المرءَ للعَمَلِ والفِعْلِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

هُرُوبَ الجُبناء والمُترفين مِن الحقِّ مخافةَ أقداره أكثر مِن هُرُوبِهِم منه بسببٍ علميٍّ، أي لمعانيه ومعالمه ومعارفه، ولذلك تميَّزَ الجيل المُهتدي الأول بالتربية على هذه الأقدار، فكانوا صناعتها مناصفةً مع صناعة المعاني العلمية التي آمنوا بها، وأما أهل هذا الزمان فظنوا أنَّ المعاني والمعارف الحق كافية لتحقيق الإمامة والتغيِّير من غير أن يعيشوا أقدارَ هذه المعاني والمعارف، ولذلك آل بهمُ الأمر إلى تخليهم عن حقائق هذه المعاني، وعن سياستها الصحيحة، فذهبت أهواؤهم بهم إلى ابتداع دين «مشيأ»، أي مجموع على وجهٍ مختلفٍ عن وجه الدين الصحيح، نعم، أفراده منه، ولكن وضع على وجهٍ آخرٍ غير ما أراده الله تعالى، فالعرب تقول لما تركب على غير صورته أنه شيأ، وهؤلاء لما أعياهم وضع الدين على الوجه الذي تلقاه الصحابة راحوا يقطعونه ويُركبونه على وجهٍ يتلاءم مع أهوائهم، ومِثالهم مثال المرء الذي أعياه أن يُدخل شيئاً من باب بيته فقطعه قِطعاً يسيرة ثم جمعه جمعاً جديداً، فالأجزاء هي الأجزاء ولكن ما كان رأساً عاد إلى جِهة الأرض، وما كان قلباً صار محسناً وثانوياً، فأين هو التوحيد اليوم من أعمال الأحزاب؟ وأين هي مقتضياته؟ وأين هي الدار الآخرة؟

كل هذه صارت تبعاً لقضايا أُخرى هي تابعة فجعلوها رأساً كإصلاح الاقتصاد ومَرافق الحياة ومُراقبة الولاة والإدارات التي سموها سياسة، وهي أمُورٌ مِن الدين لكنَّ الفساد إنما جاء في تغيِّير صورة الدين عند هؤلاء، والدافع هو ثِقَلُ تكاليف الدين الحق، فقطعوه حتى ذهبت روحه، ثم ركبوه على وجه يُلاءم

الأهواء، فصار الدين مشياً، فاختلفت أقداره وفاعِليته في الأرض، ولو أبصرَ هؤلاء معنى الدين الحق وصورته السَّننية التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه لَوقعتْ لهم أقدار الدين مِن المحن، ولجَرتْ بهم هذه المحن على وجهٍ تُؤدي لُزُوماً قَدرياً للوراثة والتمكين.

البِدع العصرية اليوم لها صورٌ ووجوهٌ متعددةٌ، أعمقها وأشدها هو «التشييْ» فكل أمرٍ يحقق البلاء والمحنة أُزيل من موقعه إلى موقعٍ متأخرٍ حتى يفقد تأثيره، والثانية رفع الدين من بيئته وهي بيئة الامتحان والجهاد، والشيء لا يمكن أن يحي إلاَّ في بيئته القَدرية التي تتلاءم معه، فلا عجبَ بعد ذلك أن يُصبح الإسلام خادماً، يعيش في ظلال الجاهلية كالقومية والوطنية، إذ تنزع منه ما يحقق للجاهلية بقاءها وقوتها، وتذهب قوته في أن يكون هو الحاكم ومظلة الوجود للآخرين.

إنْ لم يُدركِ الفقيه والعالِم هاتين البِدعتين ويعمل حياته في جِهادهما فهو كواضع الذهب في نهر النجاسة، فمهمَا صبَّ على الذهب من ماءٍ نقيٍّ فلن يحقق الطهارة له أبداً، والواقع يشهد لذلك فإنَّ فاعليةَ المسلم في الحياة اليوم تكاد تنعدم، فوجود الصالح في نفسه من المسلمين كثير، ولكن «المُصلحين» قليل، وكلما تساءل النَّاس عن سبب غِياب أثر الدُّعاة وهُمْ كثيرٌ، وعن سببِ التراجع في فاعلية المُسلمين في العالم فإنه يعلم أنَّ المشكلة في هاتين المسألتين.

حديث الفتى المُؤمن في هذا الباب يحقق لقارئه المعاني القَدرية التي تُصاحب المُهتدي، ويُعلمه الواجبات الشرعية التي تحقق التجاوز والانتصار على هذه الأقدار، ونفع هذا الحديث في زماننا من وُجُوهٍ عِدة أهمها أنَّ الحديث يتكلم عن فترة التأسيس، وهي فترة الابتلاء، وفترة الشهادة كما سيأتي شرحها وبيان نماذجها في حياة البشرية وحياة الصَّحابة رضوان الله عليهم، وزماننا لا شك أنَّ فيه هذا المعنى، إذ أنَّ سِمَّة الأوائل أن يبذلوا، ويموتوا ليحيى مَن بعدهم، فمن

صحابه الضعف في ثقته على الآخرة ولقاء الله والاحتساب وطلب الأجر يوم القيامة فإنه لن يصمد في هذه المرحلة، بل سيهرب منها في انتظار غد في الأمن والطعام والغنائم، ولا شك أنه سيكون رأساً في هذا الباب، مع أنه في هذا الغد ضريبته من الابتلاء ليس في هذه الورقات محلاً لشرحها.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُبارك في هذه الكلمات، وينفع بها كاتبها وقارئها، وأن يجعلها في ميزان عملي الصالح يوم القيامة.

آمين



«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ»

السلطة السياسية تحتاج دَوْماً إلى شرعيةٍ تحققُ لها القوة والبقاء، فالمُلك والسلطان والحاكم لا يملك قوةً ذاتيةً تحقق له الغِنى في نفسه والقِوامة على الآخرين، فالذي يملكُ ذلك أي الغِنى الذاتي والقِوامة على الآخرين بنفسه هو الله تعالى، وأما غيره فإنَّ غِناه في غيره، ولتحقق سلطانه فإنه يحتاج إلى شرعيةٍ مقبولةٍ من قِبَلِ المرؤُوسين، ولذلك فالقرآن عندما تحدث عن صورة الطاغوت الحاكم كما هي في شخص فرعون، فإنه نقلَ الحديث نفسه مرةً عن الملأ، ومرةً أُخرى عن فرعون نفسه، لأنَّ فرعون شخصٌ، وليس إلهاً، وهو يجري إرادته في شَعبه مِن خِلال قوةٍ ما، هي مصدر شرعيته، ففي سورة «الأعراف» قال تعالى: **﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾** [الأعراف: ١٠٣ ـ ١١٠].

فهذا خطابُ الملأ الذي يحيط بفرعون، وهو قولهم حين جاء موسى عليه السلام له، وهو نفس خطاب فرعون كما في سورة «الشعراء»: **﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا**

﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الشعراء: ٢٣ ـ ٣٥].

فخطابُ الملأ هو عينه خطاب فرعون، وفرعون يعلمُ أنه لا يملكُ قوة من غير الملأ، فهو بحاجةٍ لدعمهم ولذلك قال لهم كما في سورة «غافر»: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]، فها هو مع تألُهه عليهم يطلبُ منهم أن يعينوه بل ويأذنوا له أن يقتل موسى، لِما يعلم أنه لا يملك غنى في نفسه دونهم، بل هو بهم، كما أنهم هم به، بل إنه لما أرسل طالباً المَدد والجنود لقتل موسى عليه السلام وبني إسرائيل الهاربين من مصر احتاج تبرير هذا الأمر لهم فقال الله تعالى عنهم في سورة «الشعراء»: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٣ـ٥٦]، وبهذا أشركَ قومه في الحذر في قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فأدخلهم معه في الخَطر القادم من موسى عليه السلام ودعوته.

فالحاكم في الحقيقة القرآنية لا يملك قِوى خارقة على شعبه، لكنه كذلك ليس شأناً عادياً كغيره من الأتباع، فهو له خُصوصية الاعتبار مُناصفة مع الملأ والجنود، ولذلك كان من الفقه الشرعي أنَّ الجهاد يكون ضدَّ الأئمة والجنود، بل ضدَّ الأتباع حتى لو كانوا مُستضعفين ينقادون للمُستكبرين في أمرهم ونهيهم.

لقد تعددتِ المواطن في القرآن الكريم التي تتحدث عن رفع الأعذار التي يتخفى خلفها الأتباع والمُستضعفين في انقيادهم لأمر أسيادهم، وأنَّ ما يقولونه إنما هي شُبَهٌ كاذبةٌ لا تملك الحقيقة، والغفلة عن هذه الحقيقة هي التي فرَّقت الكفار في ديار الحرب بين مدنيٍّ وعسكريٍّ، وبين حاكمٍ وشعبٍ، وبين ملأ وأتباعٍ، فهذه خِدعة انطلتْ على جَهلة المسلمين، وشربت قلوبهم خمرتها.

في سورة «إبراهيم» قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

وفي سورة «الأعراف» قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩].

وفي سورة «البقرة» قال جلَّ في عُلاه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

وقال جلَّ في عُلاه في سورة «الأحزاب»: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وفي سورة «غافر» قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨].

وفي سورة «سبأ» قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟

لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

فهذه آياتٌ محكمةٌ بيِّنَةٌ أن في أعذار المُستشفعين والأتباع في لحوقهم بالأئمة منهم والمُستكبرين فيهم غير مقبولة، بل هم على السواء من العذاب إلاَّ ما جاء في سورة «النحل» أنَّ المُفسدين لهم عذابٌ زائدٌ على أتباعهم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل: ٨٨].

فهذه قضيةٌ مهمةٌ في كتاب الله وهي أنَّ الأتباع في دخولهم في طوائف المُستكبرين، وتكثيرهم سوادهم، والتحاقهم بهم على معنىً مِن المعاني ووجهٍ من الوُجوه يجعل لهم حُكمهم في الدنيا والآخرة، ولذلك فإنَّ الخطاب للحاكم والسلطان في إقامة الحجة الرِسالية كافية في دين الله لقتال الطوائف واستحلال دمها ومالها، وهذا واقع الفقه الربَّاني المُحكم، إذ كان النبي ﷺ يُرسل لعظماء الأُمم والشعوب الرسائل، ويكون في هذا الكفاية لاستحلالهم قِتالهم وغنيمة أموال الحُكام والمحكومين، هذا ما فعله رسول الله ﷺ في جزيرة العرب وفي رسائله إلى هِرقل وكسرى والمُقوقس، ولم يكن مِن الواجب أن تبلغ الحجة والدعوة كل واحدٍ من هذه الطوائف المُمكَّنة والمُمتنعة حتى يستحل الصحابة قِتالها، ذلك بأنَّ أيَّ أُمَّةٍ مِن الأُمم رضِيَتْ حاكماً لها على وجهٍ من وُجوه الإمامة والسلطان فهي معه، وهي به، وهو كذلك بها سواء بسواء، فهو لهم جُنَّة يحميهم، وهم له جُنَّة يُقاتل بهم ويحكم بهم، فتمضي أوامرهم بأُمَّتِه التي رضيته للإمامة.

وأما دعوى المُخالفة له مِن قِبَلِ بعض الطوائف، فهذا وَهْمٌ بحسب ما يُسمونه النظام الديمقراطي المُعاصر، لأنَّ هذا النظام يقوم على وُجود أغلبيةٍ حاكمةٍ وأقليةٍ

مُعارضةٍ، وكِلاهما يمثل السلطة، أي سلطة الفِعْلِ وسلطة المُراقبة والمُحاسبة، وكِلاهما جزءٌ مِن النظام، فالأمر الصادر من سلطة الحُكم الأغلبية يملك قوة الفِعْلِ والأداء من سُلطان النظام المُكون من الحاكمين والمُعارضين سواء بسواء، بل يجب على الأقلية قبول ما يصدر من الأغلبية على وجهٍ قانونيٍّ كما يجب احترامه والعمل به والخضوع له، وإن كان لهم العمل من خلال النظام لتغيِّير النِسب بين الأقلية والأكثرية.

فالطوائف الحاكمة هي سلطة بقوتها هي، وسلطة من خلال الأتباع، وسلطة من خلال المُعارضين المُنتظمين في داخل النظام الذي يقسم نفسه إلى حُكامٍ ومُعارضةٍ.

هذه قواعد قُرآنية وحياتية تُبَيِّن أنَّ الجهاد ليس ضدَّ رجلٍ يُسمى حاكماً يعيش في فضاءٍ مُنفرداً، فتُوجه الأسلحة ضدَّه، أو ضدَّ وُزرائه ومُعاونيه فقط، أو ضدَّ جيشه المُقاتلين فقط، بلِ الجهاد ضدَّ هؤلاء كُلِّهم وضدَّ الردءِ فيهم من الأتباع الذين دخلوا في ذلك كلِّه مِن القبول أو السكوت، وحُكم الجميع سواء.

هذا لا يمنع إنْ قدر على آحادٍ منهم، فصار مقدوراً عليه، وعُلِمَ منه إنكاره لدين قومه ومذاهبهم وسياستهم أن يُعامل بالحُسنى المُلائمة له، وفي السيرة ما يشهد لهذا، وليس هنا محل بحث هذا الخصوص، بل له مجالٌ آخرٌ، أما دعوى تجنيب ما يُقال لهم بالمدنيِّين أي الأتباع من غير المُقاتلين بحجة استضعافهم فهذا لا وُجودَ له إلاَّ في أذهان الجهلة من أُمَّةِ محمد ﷺ، لأنَّ هؤلاء المُستضعفين - زعموا - هم مصدر قوة المُستكبرين، فهم أُمتهم، وهم شعوبهم، ومنهم تستمد الجيوش رجالها وقوتها، وقوة عَطائهم في الصناعة والزراعة والكسب هي مصدر قوة الحُكام والمُستكبرين.

من هنا يُعلم أنَّ ما يتصوره البعض من أنَّ المُشكلة هي شخصُ الحاكم في بلدٍ من البلاد هو وهْمٌ وخطأٌ، فلا يُوجد حاكم إلاَّ بطائفة، وهي مَن يقاتِل ويقاتل

الجهاد في الإسلام ضدَّ هذه الطوائف، وكل محاولة لتبرئة هذه الطوائف من إجرام الحكام، وعدم قصد قِتالهم إنما مآلها إلى إبطال الجهاد في سبيل الله تعالى، ليُصبح الجهاد حالة ذهنية لا يمكن تحقيقها واقعاً.

هذا لا يعني أنَّ الحاكم أو طائفته ليس لهم خُصوصية النَّظر والتأثير، فإنَّ تصور الحاكم على معنى آحاد الرعية جهلٌ لا يقوله عاقلٌ، لأنَّ وصول امرئ إلى حالةٍ مِن الفَرادة بالسلطة، وانقياد الجموع له لا بدَّ أن يكون فيه معنى خاص يختلف عن الآحاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [التوبة: ١٢]، فهؤلاء أشبه بالَمفاصل التي تُدِيرُ أطرافَ الجسد، ومن دونها فإنَّ الجسدَ مجرد أطراف مُتناثرة لا تضع قوة جامعة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الإِمَامُ جُنَّةٌ**»[1] أي وِقاية وسِتر تحتمي الأُمَّة به من أعدائها، فالإمام يُقاتل بالأُمَّة، وهي تُقاتل به، ولذلك فهُمْ على معنىً واحدٍ في دين الله تعالى، وواقع البشر يشهدُ لذلك.

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ»

وجود الساحر ضرورةٌ من ضرورياتِ الُملك، وواجبٌ من واجباته لاستقراره ونَفاذ أحكامه، فالساحر سلطة تزيِّينٍ وخِداعٍ ورَهْبَةٍ، ولتحصيل هذه المقاصد فلا بدَّ من وُجود اعتقادٍ للأُمَّة بهذا الساحر، فمِن غير إيمانٍ رابطٍ بين الساحر وبين الشعوب لا يحصل التأثير اللازم، ولذلك فالساحر هو إفراز عقائدي مِن قِبل الأمم، يرشح منها ثم يعود عليها بالسلطة والتأثير، شأنه كشأن الأصنام، يصنعه المرء ثم يعبده، وهو مِن صُنع يديه، ولهذا فالساحر وإن كان اسماً على حقيقةٍ كونيةٍ وهي السحر، إلا أنه حالة مُضطردة تكون في كلِّ مَن قام بدوره في تزيِّين وخِداعٍ وإرهابِ الشعوب للخُضوع لحُكامها وقبولها تألههم وسُلطانهم، فمن

[1] «البخاري»: ٣/١٠٨٠/ح٢٨٩٠. «مسلم»: ٤/١١٣/ح٨٨٥، ١٢/١٨١/ح٤٧٢٨.

كان للسلطان كذلك على أي وجهٍ مِن وجُوه هذه الأفعال كان «ساحراً»، يتخذه المَلك لخاصة نفسه.

فالسحر في قومٍ مِن الأقوام اعتقادٌ وسلطانٌ، يملكه أُنَّاس لهم خوارق يستطيعون السيطرة فيها على حياة الآخرين وممتلكاتهم، وهو عالمٌ مليءٌ بالأكاذيب والقليل من الحقائق، وكثيرٌ مِن السحرة تصنعهم الشعوب والأُمم بأوهامها وخَيالاتها، ثم يخضعون لها، فحرص ملوك هذه الشعوب التي تعتقد هذه الاعتقادات على امتلاك هؤلاء «المُرهبين» والنافذين يُعادل امتلاكهم للجنود والمال والسلاح.

حين تتعلَّقُ قلوب الأُمم بأمرٍ مِن الأُمور، فتنقادُ له على معنًى من معاني الخُضوع، مِن رهبةٍ آسِرةٍ أو رغبةٍ طاغيةٍ فإنَّ السلطان يُسارع لاجتذاب هذه القِوى إلى صفه، وقد تتعدد هذه القِوى، وفي البيئة الإسلامية المريضة فإنَّ التعلُّقَ يكون بالشيخ والمُفتي والواعظ، وهو تعلُّقٌ مرضيٌّ على وجه التقليد وإسباغ بعض المعاني التي تسبغها البيئات المُشركة على السحرة، فيتحول هؤلاء إلى فِعْلِ السحرة في تلك البيئات، إذ يُخْضِعُونَ المسلمين بسلطان الخطاب الشرعي المُزور لأهل الطغيان.

كان الأمر في زمن وعيِّ العلماء وإدراكهم لمعنى وظائفهم في الحياة المسلمة أن ابتعدوا تماماً عنِ السلطان، مع كون السلطان في زمانهم سلطاناً مسلماً، إلاَّ أنهم يُدركون أنَّ استقلال الحالة العلمية وبراءتها من شوائب السلطان والمُلك هو ما يحفظ صورة النموذج الإسلامي الذي تندفع الأُمَّة نحوه، وتتمثل به، فهُمْ في استقلالهم مِعياراً للحقِّ المائل، كما أنَّ سلفهم مِن الصحابة ومن اقتفى أثرهم مِعياراً للحقِّ المُتخيِّل، وهذان عُنصران ضروريان لحياة الإسلام في الأُمم والشعوب، أي لا بدَّ مِن وُجُودِ مِثالٍ حاضرٍ يمثله العلماء ومثالٍ مُتَخَيِّلٍ يمثله سلف هؤلاء العلماء، وهم من خلال سلطة العلم وسلطة المثال - أي الفعل من

زهدٍ وجهادٍ وقوة بيانٍ وصدق لهجةٍ وأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكرٍ ـ يملكون اسم الأُمَّة لأنهم نُواتها، وإنْ كان السلطان مع الأُمّة هم جسم هذه الأُمَّة.

فالأُمَّة لها مظهرٌ من السلطان القاهر، ونُواةٌ من سلطان العلماء، وبينها تكامل وتنازع كذلك، هذا التنازع هو تنازع المُراقبة والمُحاسبة والدفع للتقوى والأمر بالمعروف والنهي عنِ المُنكر وشدِّ الأُمَّة نحو النموذج المُرتجى، ولكن طُغيان السلطان القاهر ورغبته الجامحة في استحواذ سلطة العلماء، ثم وهن حقائق العلم في نفوس المتزيِّن بالعلم جعلهم يتماهَوْنَ مع السلطان القاهر المُمكَّن، فدخلوا فيه وصاروا جزءاً منه، وكان هذا من أعظم الشرور التي أصابت تكوين الأُمَّة وبُنيانها، ذلك أنه لما أنْ وقع البلاء بسقوط سلطان الإسلام السياسي لم يكن هناك مفهوم مُوازي للأُمَّة يحمي هذا الكِيَّان ويُعيد بناءه وتلتف الأَنة حوله، أي الأُمَّة من خلال نُواة السلطة العلمية، فانهارتِ الأُمَّة في جوهرها وليس فقط في كِيانها السياسي، ولم يعد هناك إمكانية تحقيق فتاوى العلماء مِن وُجوب الالتفات حول العلماء والانقياد لهم إنْ سقطَ أو ذهبَ السلطان السياسي، وما نراه اليوم من دخول الوظائف الدينية مِن مُفتين وقُضاة وأئمة مساجد وخطباء ووُعاظ بل وعلماء شريعة يُدَّرِسُونَ في داخل الجامعات المُعاصرة إنما هو مرضٌ حقيقيٌّ وطامةٌ عظيمةٌ حتى لو كان في دولة إسلامية شرعية فكيف لو كان الأمر ما نراه اليوم من خُضوعهم بسلطان الطواغيت.

في هذا السياق هناك طامةٌ أُخرى وقع فيها هؤلاء القوم غير ذوبان سلطانهم في سلطان الآخرين «مسلمين، ومشركين، ومرتدين» هو عدم التفريق بين الدعوة والدولة، ففي اعتقاد أهل السنَّة «وهو الحق» أنه لا يوجد دولة في تاريخ الإسلام هي نموذج العلم إلاَّ الدولة الراشدة من الخلفاء الأربعة المَهديِّين، وأما مَن بعدهم فهم سلاطين مسلمون فيهم خيرٌ عظيمٌ وفيهم شرٌّ كذلك، فلا تصلُحِ الدولة في تاريخ الإسلام نموذجاً للاقتداء العلمي، بل هي كيانٌ سياسيٌّ قاهرٌ، وضرورةٌ

بشريةٌ وشرعيةٌ، لكن حين دخل هؤلاء «العلماء» في داخل الدولة، ولضرورةٍ نفسيةٍ شخصيةٍ فقط صارت الدول هذه في نظرهم نموذجاً للعلم والاقتداء، يُدافع عنها كما يُدافع عنِ الحقِّ في نفسه، أي يرد عنها حتى الأمر بالمعروف والنهي عنِ المنكر، وكل فِعْلٍ شرعيٍّ تجاهها يُعادل في نفوسهم أيِّ فِعْلٍ ضدَّ الكتاب والسُّنَّة، فلا عجبَ أن تُسمى الحكومات والدول لهؤلاء العلماء بدول التوحيد ودول السُّنَّة!!، ومهما وقعتِ المعاصي منها حتى لو كانت أفعال الردة والكُفر فإنَّ تماهي هؤلاء العلماء داخلها، وذوبانهم في مفاصلها يمنعهم من ممارسة سلطة العلم التي كان عليها العلماء من قبل، إذ كيف للمرء أن يمارس الحِسبة ضدَّ ذاته، أو يسمح لآحاد الرعية ـ وهمُ الأدنى في نظرهم ـ أن يأمروهم بالمعروف وينهونهم عنِ المنكر؟

بدخول هؤلاء العلماء، ومؤسسة العلم إجمالاً في سلطان الحُكم القاهر حولهم جُنوداً لها، فهم يُنافحون عنها، لأنهم هي، وهي هم، والقائل بالحقِّ ضدَّ السلطان هو مفسدٌ في الأرض، ومُعَادٍ للدعوة والعلم كذلك عندهم.

عدم وعيِّ العلماء على هذه المُشكلة جعل مؤسساتهم سِتاراً كستار الساحر عند المُلوك السابقين، وبعض هؤلاء يمارس هذا الدور بوعيٍ وإدراكٍ، وهو راضٍ بقسمة أن يأكل بدين الله الدنيا، ويتبع هواه بغير هُدىً من الله تعالى، فانسلخوا من الدين كانسلاخ الحية من جلدها، فأتبعهم الشيطان فصار لهم ولياً، وصاروا له أولياء، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

هناك طبقة أخرى أشد ضَراوة وسُعاراً في اتخاذها دور الساحر عند المُلوك وهي طبقة «الصحفيين» و«الإعلاميين»، وهذه الطبقة تُسمى اليوم بالسلطة الرابعة، بل هي في الحقيقة أقوى، لأنها هي ركن وأرجل السلطات الأُخرى، وهي الفاعل المُؤثر عليها من وراء سِتارٍ أو بدون سِتارٍ، وشرح هذه الطبقة وممارساتها في الإجمال تحتاج إلى مُصنفاتٍ لا مصنف واحد، فقد تحول هذا الأمر إلى فنٍ

وعلمٍ ودراسةٍ، فله قواعده وقوانينه، وله فنونه وأساليبه، ولو تفكر المرء في حدثٍ واحدٍ وكيفية تعامل هذه الطبقة معه، وتنوعها في الإخبار عنه واستغلاله وتحليله لَوَجَدَ العجبَ العُجاب، ولذلك فلا عجبَ أن يكون الإنفاق المالي على هذه المؤسسات أكثر من إنفاقها على الجيوش والأسلحة، لأنَّ حاجة الأنظمة لها أشد من حاجتها لهم، بل هم يدها قبل الفِعل وأثناءه وبعده، ولذلك فإنَّ الخارجين عن هذه السلطة من الشعوب والجُموع قليلٌ جداً، وهؤلاء هم أصحاب وعيٍ مميَّزٍ وقُدراتٍ نفسيةٍ وعقليةٍ راقيةٍ، لكن ابتداءً يجب على المرء أن يعلم أنَّ البراءة وحُسن النِيَّة في ما يقرؤه ويراه ويسمعه لا وجودَ لهما البتة، بل يجب تقديم سوء الظن اليوم في كلِّ ذلك.

نُلاحظ في النموذجين هنا للسحر المُعاصر امتلاكها للكلمة الخادعة، وهي أداة إبليس في إغواء أبينا آدم عليه السلام وإخراجه مِن الجَنَّة، كما قال تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾** ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢١]، ولذلك سمى رسول الله ﷺ حُسْنَ البيان سِحْراً فقال: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لسِحْراً**»[1]. فالكلمة قذيفةٌ تُدمر وتُحيي، فإنْ كانت كلمة حق دَمرت الباطل وأحيت النفوس بالإيمان، وإن كانت كلمة باطلٍ دمرت النفوس وأفسدتها، ولذلك قال تعالى عن الحق: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]. فالكلمة هي أقوى أسلحة البشر، فهي أداة الأنبياء في نشرِ الحقِّ، وهي وسيلة الباطل في نشر مفاسده، هذا مع أنَّ كلمة الباطل تحتاج إلى مُساعدات لوُصولها إلى أهدافها، أهمها المُتعة والشهوة، كما قال الشيطان لأبينا آدم: ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾** ﴾ [طه: ١٢٠]. فوعدهما بالخُلد

[1] «البخاري»: ٥/١٩٧٦/ح٥١٤٦. طرفه: ٥٧٦٧ .

والنعيم المُقيم، وكذلك تحتاج إلى ترهيب السامع وتخويفه كما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

هذه الكلمة وقُوتها قد تكون هي الوسيلة الوحيدة التي يملكها المَلك لبسط سلطانه، حيث تلتحق بالكلمة بقية أدوات السلطان وتُصبح تابعة له، والتاريخ يشهد لهذه النماذج.

في هذا الحديث ـ حديث الفتى ـ سنرى قوة كلمة الحق، فحياة الدَّاعي وبقاؤه سببٌ لدمار الملك الباطل، وكذلك موته شهادة سبب لذلك، وما بينهما من تعذيبٍ للدَّاعي أو سجنه سيُحقق الدَّمار له، كما قال تعالى: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٦]، لأنَّ الحقَّ قوة في نفسه وذاته، فكيف إذا صاحبه في قلوب أهله لذة، كما قال رسول الله ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبّا، وَبِالإِسْلامَ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً**»[1]، ثمَّ كيف إذا امتلأت قلوب أهل الحق بالرغبة في إرضاء الله وتحقيق الجِنان؟ كل هذه تجعل للحقِّ قوة فوق قوة في نفوس أهله، لكن دوام الصِّراع سببه أنَّ الباحثين عن لذة المعاني مُقابل لذة الشهوات قليلٌ في البشر، وكذلك المؤمنون بالغيب مُقابل الحيوانات التي لا تُؤمن به قليلٌ، ولذلك يحصل الصِّراع، هذا مع أمرٍ آخرٍ وهو بهيمية الخط الإنساني المُنكر للنُّبوة وسبيلها، فإنَّ ما معهم من أتباع بهائم كُثُر فإنهم يتوحشون ضدَّ خصومهم، ويمارسون في صِراعهم هذا أشدَّ أنواع البطش والقتل والتدمير، ولذلك فإنَّ التاريخ يشهد أنَّ مُنكري النُّبوة همُ القَتلة المُجرمون، أصحاب الجرائم الكبرى، فإنَّ الحروب التي شنها «الإنسان» مِن غير دينٍ إلهيٍّ، ضدَّ بعضهم البعض، وضدَّ أتباع الأنبياء هي الأشد وضحاياها همُ الأكثر،

[1] «مسلم»: ٢/٣/ح١١٥ .

وبإحصاءٍ يسيرٍ لهذا يكون الرد على مَن زعم أنَّ البشرية من غير أديانٍ تكون أقلَّ حروباً وأكثر سعادة وأضعف في أسباب الصِّراع.

وجود المَلك القاهر بالقوة، ووجود الساحر القاهر بالكلمة يجعل الصِّراع ضدَّ الباطل ليتحقق النَّصر له سبيلان؛ **أولاهما**: كسر شوكة القوة عن طريق الجهاد بالسلاح والعتاد والرجال، **وثانيهما**: ضرب مِصداقية الكلمة وبيان فسادها وإظهار عَوارها وكذبها، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾**﴾ [الفرقان: ٣١]، فالحق لا بدَّ له من قوام الهداية وأدائها الكلمة، وقوام النُّصرة وأدائها السلاح والرجال، وهذا مفصلٌ في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾**﴾ [الحديد: ٢٥]، فلا وجودَ للحقِّ إلاَّ بأمرين؛ هما: الكتاب الهادي والحديد الناصر، وقد صدق عمر بن الخطاب في رسالته للأبي موسى الأشعري حين قال: «ولا خير في قضاء لا نفاذ له».

«فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ».

هذا دليلٌ أنَّ السحر صناعة من الصناعات، له قواعده وأدواته، يتلقاه التلميذ من أستاذه، وفي القرآن دليلٌ أن بدايته لا تكون إلاَّ بالكفر، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، والحق أنَّ كل ما يتعاطاه الإنسان من شؤون إنما هي صناعة من الصناعات، تحتاج إلى كسبٍ وتعلمٍ، وقد ترقى في أقوامٍ دون آخرين لعِنايتهم بها وتمرسهم في أدائها، لا لسببٍ آخرٍ متخيّلٍ كما يظن العوام، لكن تميُّز الأفراد في بابٍ من أبواب هذه الصناعات يحتاج إلى استعدادٍ فِطْرِيٍّ يركب عليه أفراد دون آخرين.

ثمَّ إنَّ في هذا دليلٌ أنَّ النَّاس وإن كان لهم ميلٌ إلى حِفْظِ سر صناعاتهم مخافة المُنافسة وذهاب المكاسب إلى غيرهم، إلاَّ أنَّ الكبر ومظنَّة الموت مُذْهِبٌ لهذا الخوف، وداعٍ لهم أن ينشطوا لبثها وتعليمها لغيرهم، وهذا الحال ممنوع في الشرع، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ حثَّ على التعليم والبلاغ وقال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[1] وقال ﷺ: «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[2]، وحذر من منع العلم فقال: «**مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[3].

«فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ، رَاهِبٌ»

وهذا وإنْ كان ظاهر القصة والحديث أنه أمرٌ قدريٌّ، أي ليس من اختيار الراهب العابد، إلاَّ أنَّ الشرع يحض عليه، أي أن يقف الدُّعاة والعلماء في سبيل النَّاس يُعلمونهم ويُرغبونهم بالحقِّ والدين، ويكشفون لهم سُبل الباطل والشرِّ، ليهتدي النَّاس بهم، وليبصروا بكلماتهم الحق والباطل، فيحيى مَن حي عن بيِّنة، ويهلك من هلكَ عن بيِّنة، وهذا كان شأن رسول الله ﷺ في مكة والمدينة سواء.

أما في مكة فعرضه نفسه على القبائل في الحج وأسواق العرب فمشهورٌ ومن ذلك ما جاء من سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] إذ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نَزَلت ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا فجعل يُنادي: **يا بني فِهر، يا بني عَديّ** - لبطونِ قُرَيشٍ - حتى اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يَستطعْ أن يَخرجَ أَرسل رسولاً لِيَنظرَ

[1] «البخاري»: ٣/١٢٧٥/ح٣٣٨٦.
[2] «سنن الترمذي»: ٧/٣٩٤/ح٢٧٢٧.
[3] «سنن أبي داود»: ١٠/٩١/ح٣٦٥٩.

ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: «**أرأيتَكُم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ؟**». قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلاَّ صِدقاً. قال: «**فإني نَذِيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ**».

فقال أبو لهب: تَبّاً لكَ سائرَ اليوم، ألِهَذا جمعتَنا؟ فَنَزَلت: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾**﴾ [المسد: ١ ـ ٢].[1].

وعن ربيعة بن عباد بن الدّيل ـ وكان جاهلياً فأسلم ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «**يا أيها النَّاسُ قُولُوا لا إلهَ إلاَّ الله تُفْلِحُوا**»، والنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عليه، ووراءه رجل وَضِيءَ الوجه، أَحولُ ذو غديرتين، يقول: إنه صابئٌ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألتُ عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ، وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب».[2].

وقصته في الرحلة إلى الطائف ودعوته الزعماء فيها للإسلام مشهورة معلومة، وقد رواها البخاري[3] ومسلم[4] عن عائشة رضي الله عنها لما سألته قائلة: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي. فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، وإِنْ**

---

[1] «البخاري»: ٤/١٧٨٨/ح٤٦٥٢. «مسلم»: ٣/٦٦/ح٤٦١.

[2] «مسند أحمد»: ٥/٤٥١/ح١٨٦٤٩.

[3] «البخاري»: ٣/١١٨/ح٣١٦١.

[4] «مسلم»: ١٢/١٢٢/ح٤٦٠٨.

أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ». فَقَالَ النَبِيُّ ﷺ : «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**».

وأما ذهابه إلى النَّاس في منازلهم ومجالسهم في المدينة فقد ورد في ذلك أحاديث منها قصته لما عاد سعد بن عُبادة كما رواها البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما : «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى إِكَافٍ - وهو كالسرج للفرس - عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ وَرَاءَهُ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فَسَارَ حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللهِ، وَفِي الْمَجْلِسِ أَخْلاَطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، قَالَ لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا فَسَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ وَوَقَفَ وَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لاَ أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلاَ تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَكَتُوا فَرَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ لَهُ : «أَيْ سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ». يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ. قَالَ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللهِ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ فَلَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ مَا أَعْطَاكَ وَلَقَدِ اجْتَمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ فَلَمَّا رَدَّ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ»[1].

[1] «البخاري»: ٥/٢١٤٣/ح٥٦٦٣. أطرافه ٢٩٨٧، ٤٥٦٦، ٥٩٦٤، ٦٢٠٧.

فهذه سنَّةٌ نبويَّةٌ أي عَرْضُ العالِم نفسه على النَّاس في مجالسهم وطُرقهم، أما قول مالك رحمه الله: «العلم يُؤتى ولا يأتي»[1] فهي كلمة حقٍّ لها موضعها، وهو ما إذا كان في مجيء العالم إلى باب الطالب السائل إهانة للعلم، وترفعاً للطالب على العلم وصاحبه، فحينئذٍ لا يأتيه ولا يَطرق بابه، ولها موضع آخرٌ وهو ما إذا كان العلم فاشياً في النَّاس، وله محبة في القلوب حيث يقصد العالم النَّاس أفواجاً فحينئذٍ يجلس العالم في موطنه من مجالس العلم ويُعطيهم في هذه المجامع عموماً، ولا يخص قوماً دون آخرين بالعطاء على وجهٍ يُفسد معنى العلم وشيوعه في النَّاس.

ومما أفسد العِلم اليوم من بعض جوانبه أنْ خرج من المساجد التي يأتيها النَّاس بلا تمِّيز، فذهب أهل العلم إلى ما يُقال له الجامعات التي تجعل العلم قاصراً على أُناس دون بقية المسلمين، ثمَّ إنَّ هذه الجامعات تحولت إلى شركات مالية يريد منها أصحابها النفع المادي كبابٍ من أبواب التجارة، فدخول هذه المعاني على وسائل طلب العلم جعل العلم الشرعي وساع له عن طريق الفنون والصناعات الأخرى، وهذا شرٌّ عظيمٌ دخل على أهل العلم من خلال وسيلته، ذلك لأنَّ أصل العلم أن يُطلب لله ثم يُبذل لله تعالى لِيُحقق أثره الذي أراده الله منه.

ثمَّ إنَّ خروج العلم ومؤسساته من المساجد إلى جهاتٍ أُخرى لها ضوابط وشروط غير شرعية، ويقوم عليها من لا همَّ لهم في نشر الدين ولا العمل به يجعل طالب العلم خاضعاً لهم في كثير من شؤون حياته، ويُفسد عليه طلب العلم ونشره بل ومُستوياته.

ما يحبه الله لأهل العلم في كلِّ زمانٍ أن يبذلوا العلم لله، وسيكفيهم الله، ولتكن مناهجهم منهج يوسف عليه السلام حيث يجيب سائليه دون أن يسألهم

[1] «المدخل إلى السنن الكبرى» للبيهقي .

أجراً حتى وهو في السجن، فإنَّ الرجل الذي أُفرج عنه من السجن لما جاءه يسأله عن رؤيا المَلك لم يتردد في بذل الجواب بغير عوضٍ ولا شُروطٍ.

كما يحب الله منهم أن يجلسوا في مظان العلم وهي المساجد فيبذلوا العلم للنَّاس دون أن يستأثر بهم سلطان أو جهة من الجهات تستأجرهم على وجهٍ من وجوه الوظائف الدنيوية، ولو فعلوا ذلك لَعادت إمامتهم للمسلمين، ولاستطاعوا بعد ذلك أن يُعيدوا تشكيل الأُمَّة على وجهٍ من وُجوه الخير يُعِيدُ لها صِياغتها وقُوتها وصناعتها.

قوله: «ابْعَثْ لِي غُلاَماً»

يدل على أنَّ هذا السِنَّ هو أنسب الأوقات لطلب العلم حيث قوة الذاكرة وفراغ الحال من المشاغل، وعُلُوِ الهمة، وهدم موانع الصناعات النفسية والعقلية السابقة، فيترسخ العلم رُسُوخاً قوياً، ويعطي آثاره في نفس المرء وذلك أكثر من الأوقات الأُخرى حين يتقدم العمر فتضعف الذاكرة وتخفت الهمم وتكثر المشاغل.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ عامتهم من الشباب والفِتيان، وكان من فقه الأنصار أنهم أدركوا نِعمة الله تعالى عليهم بما وقع من حدث موقعة «بُعاث» التي جرتْ بين الأوس والخزرج قبل إسلامهم، حيث قُضي فيها على كُبراء القوم وسادتهم فلم يبقَ إلاَّ الشباب والفِتيان، ولم يبقَ مِن الكبار إلاَّ عبد الله بن أُبي الذي أرادوا تتويجه كما جاء في حديث سعد بن عُبادة المُتقدم، فجاءهم الله بالإسلام فوقع الشر في نفسه وصار رأسه للمنافقين.

وهكذا عن أتباع الأنبياء، فقد قال الله عن أتباع موسى عليه السلام، كما في سورة «يونس»: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٨٣] فأتباعه همُ الذرية.

وكذلك كان أهل الكهف كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

فاتهام المجاهدين في زماننا أنهم شبابٌ أغرارٌ، إنما هو من قبيل تسمية الممدوح بأسماء الشرِّ تنفيراً عنه، فمن طال عليه الأمد في حالٍ لا تميل نفسه إلى تغيِّيرها حتى لو كانت على معنى الذل والشر، فبنو إسرائيل كانوا تحت حُكْمِ فرعون في حال سوءٍ وشرٍّ، ومع ذلك مالَ كُبراؤهم إلى السكون والدعة وقبول الأمر الواقع، ولم ينشط للتغيِّير إلاَّ الفِتيان، وقد كان من كلام ابن خلدون في تعليقه على تيه بني إسرائيل أربعين سنة في الأرض بعد رفضهم دخول الأرض المقدسة تحت إمرة موسى عليه السلام أن قال: إن هذا زمن كان لنشوء جيل جديد غير ذلك الجيل الذي استمرأ الذل والخِسة تحت حُكم فرعون، فبمثل هذا الجيل الذي عاش سنين طويلة عيش السخرية والعبودية لا يمكن أن تنطلق نفسه وروحه للمعالي، فكان أن رماهم الله في التيه ليأتي جيل آخر، يعيش في فضاء الحرية بلا قيود العبودية ليتحقق بهم وُعُود الله تعالى.

كبار السن يملكون حِكمة التأني إن كانوا قد رضعوا في شبابهم اندفاع التغيِّير، وكانوا من رجالها وأهلها، أما الحكمة المزعومة من الشيوخ الذين عاشوا شباب الذل والسخرة والإهانة فهي حكمة الجُبناء، وهي وإن تزينت بزي التأني وإدراك العواقب لكن حقيقتها تحطيم إرادة التغيِّير، والخضوع للظالمين والطواغيت.

لقد أسلمتْ مكة بعد أنْ قُضي على شياطينها الكبار وتحقق أمل الحبيب المصطفى ﷺ بأبنائهم من أصلابهم الذين خرجوا يعبدون الله تعالى، وهكذا فإنَّ الأمم لا تتحول إلى أوضاعٍ أخرى حتى ينشأ جيلٌ آخرٌ غير الجيل الذي استمرأ نوعاً من أنواع الحياة.

«إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ»

في هذا دليلٌ أن شرع السابقين كان فيه جواز الكذب لمصلحة دينية، أو لصرف الظلم عن المظلوم، وهذان أمران يجوزان في دين الله تعالى، فإنَّ النبي ﷺ صرح بالكذب في أمر، كما في الحديث من حديث أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَل، اللاَّتِي بَايَعْنَ النَّبِي ﷺ: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْراً وَيَنْمِي خَيْراً**» متفق عليه[1]، وزاد مسلم: «قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ: الْحَرْبُ، وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا».

وفي الحديث: «**الْحَرْبُ خَدْعَةٌ**»[2].

وأما لدفع الظُلم عن النفس أو الآخرين فهو داخلٌ في قوله: «الإصلاح بين النَّاس» فإنَّ دفع الظلم من أعظم الصلاح، وقد ورد في ذلك حديث؛ وهو حديث الحجاج بن علاط كما رواه النسائي[3] من حديث أنس وفيه استئذان النَّبي ﷺ أن يقول عنه ما شاء لمصلحة في استخلاص ماله من أهل مكة وذلك بعد وقعة خيبر، وكذلك ما ورد من قصة محمد بن مسلمة في شأنه في قتل كعب بن الأشرف وكذبه عليه حتى استمكن منه وقتله، وقد بوب البخاري على هذا الحديث قوله: باب الكذب في الحرب[4].

---

[1] «البخاري»: ٢/٩٥٨/ح٢٦٣٧. «مسلم»: ١٨/١٣٤/ح٦٥٨٥.

[2] «البخاري»: ٦/٢٥٣٩/ح٦٩٣٠. طرفاه ٣٦١١، ٥٠٥٧. «مسلم»: ٧/١٤١/ح٢٤١٥، ١٢/٣٨/ح٤٤٩٣-٤٤٩٤.

[3] «سنن النسائي الكبرى»: ٥/١٩٤/ح٨٥٥٢.

[4] «البخاري»: ٣/١١٠٢/ح٢٩٦٤.

وقال ابن حزم في كتابه «مراتب الإجماع»[١] : «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ الْكَذِبِ فِي غَيْرِ الْحَرْبِ، وَغَيْرِ مُدَارَاةِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، أَوْ إصْلاَحٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ، أَوْ دَفْعُ مَظْلِمَةٍ، مُرَادُهُ بَيْنَ اثْنَيْنِ مُسْلِمَيْنِ، أَوْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ، لما سبق».

وأما صرف الظلم عن النفس والآخرين فواجبٌ كما قال ابن الجوزي فقد قال: «أَنَّ كُلَّ مَقْصُودٍ مَحْمُودٍ لاَ يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إلَيْهِ إلا بِالْكَذِبِ فَهُوَ مُبَاحٌ إنْ كَانَ ذَلِكَ الْمَقْصُودُ مُبَاحًا، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا فَهُوَ وَاجِبٌ... فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل ... ثم لو أراد أن يقتل مؤمناً ظُلماً فهرب منه فلقي رجلاً فقال: رأيتَ فلاناً؟ كان له أن يقول: لم أره».

هذا كله حتى لو احتاج كذلك لليمين كما قال ابن قدامة في «المغني»: «لأنَّ إنجاءَ المعصوم واجبٌ، وقد تعيَّن في اليمين فيجب»[٢]. واحتج لذلك بخبر أبي داود[٣] والنسائي أنَّ وَائِلَ بنُ حُجْرٍ أخذه عدو له فحلف أنه أخوه، ثم ذكروا ذلك للنَّبِيِّ ﷺ فقال: «**صَدَقْتَ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم**».

ومما يشهد لهذا ما فعله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مع الرجل الذي أراد أن يعلم صنعته لما أخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنَّة فعن أنس قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «**يَطْلُعُ الآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ وَقَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ الشِّمَالِ.

فلمَّا كَانَ الغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثلَ ذَلِكَ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى.

فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثلَ مقالتِهِ أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى.

---

[1] «مراتب الإجماع»: ١٨٢. ونقله عنه السفاريني في: «غذاء الألباب شرح منظومة الأداب» ١٠٨/١

[2] «المغني على مختصر الخرقي»: ٤٣٥/١٣ .

[3] «سنن أبي داود»: ٨٢/٩/ح٣٢٥٧ .

فلما قام النَّبي ﷺ تبعه عبدُ الله بنُ عمرو فقال: إني لاحَيْتُ أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإنْ رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تمضيَ فعلتَ؟ قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعَارّ وتقلب على فراشه ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكبَّر حتى (يقوم لـ) صلاة الفجر.

قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلاَّ خيراً، فلما مضتِ الثلاث الليالي، وكِدْتُ أنْ أحتقرَ عمله، قلتُ: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هُجْرٌ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فطلعتَ أنتَ الثلاثَ المرات، فأردتُ أنْ آوي إليك فأنظر ما عملك؟ فأقتدي بك، فلم أركَ عملتَ كثيرَ عملٍ، فما الذي بلغ بك (ما قال) رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلاَّ ما رأيتَ، قال: فلما وَلَّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشاً، ولا أحسدُ أحداً على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه، فقال عبد الله: هذه التي بلغتْ بك، وهي التي لا نُطيق»[1].

وفِعْلُ هذا الفتى، ونصيحة العابد له ضرورةٌ في أمورٍ مُتعددةٍ، فإنَّ شرور الطواغيت وعُيونهم، وكذا أحكامهم الجائرة لا تجعل للمسلم المُهتدي سبيلاً إلاَّ بخدعتهم لبلوغ الحقِّ مقاصده، وهذا ليس من ترك الفضائل، بل إنَّ شرَّ هؤلاء الكفرة لا يزال من خلال قوانينهم، فلا بدَّ من تحطيمها وتجاوزها ليبلغ الهُدى مكانه في النفوس وحياة النَّاس.

ومما يُؤسف له أنَّ بعض المُفتين في الشرق والغرب يضل النَّاس بفتواه لهم أنْ يصدقوا مع شرطة وقُضاة الكافرين والطواغيت في نوازلهم وقضاياهم، فلقد

[1] «سنن النسائي الكبرى»: ٦/٢١٥/ح١٠٥٩٧ . «مسند أحمد»: ٣/٦٤٥/ح١٢٤٠٥ .

وجه لي بعض المسلمين أسئلة عديدة تدور حول ما يقع لهم من حوادث تكون صورتها أن يحقق مع المسلمين مِن قِبل الشرطة في قضايا مختلفة، فيستفتون بعض المشايخ فيفتونهم جهلاً بوجوبِ الصِدق لهم تحت دعوى إثبات صِدق المُسلم وأمانته، أو تحت باب تحقيق العدل في هذا الصدق، وكل هذا مِن الضلال والجهل، لأنَّ عاقبة هذا «الصدق البارد» والتقوى المزعومة هي الضرر على كلِّ الجهات، فقد رأيتُ مَن سُجِنَ ظُلماً استجابةً لهذه الفتاوى الجاهلة.

أما زعمهم تحقيق العدل، فهؤلاء المُفتون لا يفهمون معنى العدل في الشريعة، فإنَّ العدل هو تحقيق حُكْمِ الله تعالى فقط، ولا يُسمى الحُكْم شرعياً إلاَّ بأنْ يُؤْخَذَ على وجه الاستجابة لأمر الله تعالى، فلو وقعَ حُكْمٌ ما على وجهٍ يُطابق حُكْمَ الله تعالى في صورته، فإنه لا يُسمى هذا الحُكْم في دين الله تعالى شرعياً، لأنَّ مَرْجِعَ شرعيته ليس الشرع ولا مصادر الكتاب والسُّنَّة، ولذلك لا يجوز بل مِن الكُفْرِ الاحتكام إلى غير الشرع حتى لو كان يُؤدي هذا التحاكم إلى صورة الحُكْمِ الشرعي نفسه، فتشابه الحُكْمَيْنِ في الصورة لا يجعلِ الحُكْمِ في الحالين شرعياً.

ثمَّ إنَّ في الصدق معهم في إجراء أحكامهم الكافرة ضدَّ المسلمين فيه معنى قبول وِلاية الكافر على المسلمين في كلِّ صورِ الإجراءات المُتبعة، سواء في التحقيق أو القضاء أو الجزاء بالسجن وغيره، وهذا لا يجوز في دين الله تعالى لقوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾**﴾ [النساء: ١٤١]. ولقوله ﷺ: «**الإِسْلامُ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ**».

لقد تقدم أنَّ الكذب على الكفار في ما فيه إنقاذ مظلومٍ واجب شرعي، أي إن الصدق معهم ما يُؤدي إلى ضرر على المُسلم إثم ومعصية.

وقد يسألُ سائلٌ: إنَّ هناك جرائم في الشرع كالقتل والسرقة، وهي جرائم في دين الكافرين كذلك فلماذا لا نصدق في الشهادة ضدَّ فاعليها في ديار الكفر والردة حتى يُعاقب هؤلاء المجرمون؟

فالجواب على هذا من وُجوهٍ: أولها إنه لا يجوز ابتداءً الشكوى إلى شرطة الكفر والردة ضدَّ هذه الجرائم، لأنَّ هؤلاء أظلم وأفسد مِن القاتلِ والسارِق، ويقع منهمُ الظلم ضدَّ القاتل والسارق على وجهٍ غير شرعيٍّ مِن الإيذاء والعقوبة، فإنَّ السارق لا يُعاقب العقوبة الشرعية، ولا القاتل كذلك، فالشكوى ضِدَّهم لا يحقق العدل الذي يحبه الله تعالى، فلن يقع بالشكوى إلاَّ الفساد، وهو فسادٌ يزيدُ فساد الجريمة نفسها، وقد سُئل أحمد بن حنبل عن جارٍ يشرب الخمر ويسهر في القصف واللهو، فهل يُشكى إلى الشرطة؟ فأجاب بالنفي، ووجه ما قاله أخف في الشرِّ مما يقع اليوم من الشكوى إلى شرطة الكُفر والردة، لأنه رأى أنَّ شرطة زمانه فيهم هذا الفساد الذي يفعله الجار.

ولكن هذا يختلف كلياً عنِ الاستنصار بدفع الظلم مِن قِبل الصائل لحظة عُدوانه لِكَفِهِ، فلو صالَ سارقٌ أو قاتلٌ على نفسٍ معصومةٍ أو مالٍ معصومٍ، فللمظلوم الصُّراخ والاستنصار بمن يدفع عنه ظُلْمَ واعتداءَ هذا الصائلِ، والفرق بين الحالين كبيرٌ، فإنَّ في هذه الحالة يتم دفع الظُلم ومنعه، وأما في الحالة الأولى فلا يتحقق إلاَّ الظلم وزيادته في أحكامهم وأقضيتهم.

أما أنِّ هذه الجرائم في الشرع وعُرف الكافرين ودينهم فنعم، ولكنَّ الشكوى والدق معهم في إجراء أحكامهم وتنفيذها لا يمنع هذه الجرائم، بل يُوقع جرائم أُخرى، فحبس القاتل أو سجنه ليس عدلاً، ولا هو عقوبة شرعية يسعى المسلم لتحقيقها، بل هي كما تقدم فساد فوق فساد، وإعلاءٌ لشأن الكافر على المسلم.

فإنْ سألَ سائلٌ: فما هو السبيل لتحقيق الحقِّ في ردِّ المال المسروق أو القصاص مِن القاتل؟

تقدم أنَّ الشكوى والاحتكام للكافرين والمُرتدين لا يحقق العدل بأيِّ وجهٍ مِن الوجوه، وليتحقق العدل وهو حُكْمُ الشرع فيجب الاحتكام إلى الشرع بالتحكيم الشرعي عند غِياب القضاء أو عند حضوره، فإنَّ التحكيم يجوز حتى في وجود القضاء الشرعي المُلزم، أما لو امتنع أحد الطرفين من قبول التحكيم الشرعي، فهذا لا يجيز للآخر الاحتكام إلى أحكام الكفر، وعليه الاحتساب والصبر، أو الاستعانة عليه بمسلمين صالحين حتى يُؤدي الحق لصاحبه، ثم له وجهٌ آخرٌ وهو فِعْلُ هند بنت عُتبة مع أبي سفيان لما أجاز لها رسول الله ﷺ أن تأخذ من مال أبي سفيان بالمعروف، أي ما يكفيها لمنع أبي سفيان المال الكافي عنها وولدها، فقوله ﷺ: «**خُذِي ما يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بالمَعْرُوفِ**»[1]. دليلٌ على جواز استيفاء الحقِّ من المانع على وجه الخفية، وإن كان وجه الخفية جائزاً فإن وجه القوة تبيّن الجواز وأجلى، وهذا كله عند أمن المفسدة كما هو معلومٌ في الشرع.

ثمّ إنَّ هذا كله من آثار غِياب الشرع وأحكامه عنِ العالَم، وهي من العقوبات التي عمتِ المسلمين، وكل هذا بسببهم هُمْ قبل غيرهم، فإنَّ سكوتهم عن جريمة الكُفر الأكبر وهي تحكيم شرائع الكفر في أموالهم وأنفسهم جرَّتْ عليهم هذا الظُلم وهذا الحال، وللخروج من هذا الحال لا يكون بموافقته والتعامل معه والرضى والقبول، بل لا بدَّ من جهاده ومُدافعته، وأقل حال الجهاد معه هو اعتزاله وعدم الدخول فيه.

[1] «مسند أحمد»: ٦٠/٧/ح٢٣٧٢٥، ٧٥/٧/ح٢٣٨٣٩، ٢٩٥/٧/ح٢٥٣١٦. «السنن الكبرى للبيهقي»: ٣٧٤/١١/ح١٥٩٩٢، ٤٩٢/١١/ح١٦٠٣٥، ٤٢٨/١٥/ح٢١٧٦٨-٢١٧٦٩. «سنن الدارمي»: ١٥٩/٢/ح٢٢٦١. «صحيح ابن حبان»: ٣٦٤/٤/ح٤١٧٥. وغيرهم.

«إذا خشيت»

في هذا دليلٌ أنَّ ما توقع المرء حدوثه على وجه غلبة الظن ينزل في الشرع منزلة الوقوع، فالراهب نصح الفتى بتلك النصيحة إنْ خشي الضرب، ذلك لما تبيَّن أنَّ الضرب قد وقع قبلاً، فكان ما يتوقع مستقبلاً قد جرتِ العادة قبلاً بحدوثه، فهو مُتيقن الوقوع أو غالب على الظن وقوعه، ولذلك يعرف مظنة وقوع الشيء بجريان العادة أو بوجود الدلائل والقرائن، وهذا ما قال أهل العلم من مسائل الإكراه، وأنَّ معناه لا يقع إلاَّ بغلبة ظن وقوعه أو ما زاد على ذلك من اليقين، ولهذا خرج موسى من مصر لما توقع الأذى فقال: ﴿ **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ** ﴾ [الشعراء: ٢١]. وهذا كله من الحزم وحُسن التدبير، فإنَّ ردَّ الشيء قبل وُقوعه خيرٌ من مُعالجته بعد حدوثه، ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾** ﴾ [الأنفال: ٥٨]. فإنَّ الحازمَ له بصرٌ بالتوسمات، ولا يجلس حتى يقع به البلاء ثم يُعاني دفعه وإزالته، ومما حكم الله به حُكْماً قَدرياً أنْ يُؤمن المُتكبرون، ولا ينتفع بالموعظة إلاَّ المؤمنون، فإحسان الظن بالشيطان هو من الجهل والغفلة وقِلَّةِ العقل وضُعف التدبير.

«فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ. حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا . وَمَضَى النَّاسُ».

كان مِن شأنِ النَّاس قبل بعثة محمد ﷺ طلبَ الآيات الكونية لمعرفة الفارق بين الحقِّ والباطل، وقد طلبت قريش ذلك من النبي ﷺ فوقع لهم أُمورٌ منها شقُّ القمر، ولكن اختلف الأمر مع هذه الأُمَّة والاكتفاء بحجة القرآن لما قال النبي

ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]، فإنَّ أعظم آيةٍ أعطاها الله لنبي هي أعظمُ آيةٍ أُعطيت لنبيِّنا محمد ﷺ وهي القرآن الكريم، وهي آية لا تُبلى ولا تخلف من كثرة الرد، وميزة هذه الآية فوق ما فيها من الحجة على الخلق في صِدق الحبيب محمد ﷺ أنها آية هِدايةٍ واعتصامٍ، وذلك خلاف الآيات التي كانت للأنبياء السابقين، فإنها مع كونها دليل صدقٍ على نُبوة النبيِّ ﷺ إلاَّ أنها ليست دليلَ اعتصامٍ ورُشْدٍ لمسلك النَّاس في حياتهم وأعمالهم وشؤونهم.

وإنه من عظمة أصحاب النبي ﷺ وقوة إيمانهم وخصوصية منزلتهم بين أتباع الأنبياء أنهم لم يطلبوا آية من النبي ﷺ مع جواز هذا الطلب لقوله ﷺ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ**: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]»[2]، وهذا الشك هو ما يُقابل الاطمئنان وهو مرتبة أعلى وأعظم من مرتبة الإيمان والتصديق، وهي مرتبة عين اليقين وحق اليقين، كما قال تعالى: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧**﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، وهذا يحصل للصالحين من أمة محمد ﷺ بقراءتهم لكتاب الله تعالى، إذ يحصل في قلوبهم هذا اليقين كما يحصل للرائين الآيات بعيونهم، فما طلبه الخليل إبراهيم لقلبه من رُؤية العيان لإحياء الموتى إنما يحصل بالقرآن في قلوب الأولياء والصالحين، فقوله ﷺ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**» عُولج لحصول الاطمئنان بالرؤية، ويُعالج لهذه الأُمَّة بالقرآن وتلاوته والتدبر فيه، وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: « **وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ**

[1] «البخاري»: ١٩٠٥/٤/ح٤٩٨١. طرفه ٧٢٧٤. «مسلم»: ١٥٨/٢/ح٣٤٠.
[2] «البخاري»: ١٢٣٣/٣/ح٣٣٠٧، ١٦٥/٤/ح٤٤٢٠. «مسلم»: ١٥/٢/ح٣٣٧، ١٠٤/١٥/ح٦٠٩٥.

إِلَيَّ»، فآمنتِ الأُمم السابقة بآيات أنبيائها الكونية، وإنما يُؤمن أتباع محمد ﷺ به بآيات الله تعالى وكلماته الشرعية وهي القرآن الكريم.

فهذا الذي طلبه الفتى كان أمراً سائراً في الأُممِ السابقة، وأما هذه الأُمَّة فالحقُّ يُعرف بالكتاب وحده دون غيره، وهو في أنواره وقُوة دلائله على الحقِّ أجلى من هذه الآيات الكونية العيانية لمن تدبر كلام الله تعالى ودرسه وخالط قلبه ولحمه، لكنَّ إعراض النَّاس عنِ القرآن، وقِلَّة تفكرهم به، وصُنع الحواجز الوهمية بينهم وبينه جعل أقل علومِ النَّاس اليوم من المسلمين إنما هو عِلْمُ القرآن وتدارسه، فأنتَ ترى نشاط المُتدينين في أبوابٍ خاصةٍ للعلم، ولهذه الأبواب مجالس وشيوخ، وكُتب وتحقيقات، لكن لا تكاد تجد للقرآن هذا النشاط ولا هذا الوُسع والجُهد، وتعين رجاله له يجعل مِن الواجب العيني عليهم الجلوس للنَّاس وفتح قلوبهم وعقولهم على مائدة الرحمن، هذا مع جهودٍ لا تُنكر في أبوابٍ من التفسير يقوم بها رجالٌ حَمِدَ الله لهم جُهدهم، وشَكَرَ الله لهم فِعَالهم، كالتفسير العلمي وغيره، وإنْ كان أعظم بابٍ تحتاجه الأُمَّة اليوم هو الاهتداء بالقرآن في رِفْعَةِ الأُمَّة وعِزَّتها، لكن مما يُؤسف له أنَّ عِلْمَ القرآن لا يصلح للتجارة كما استخدمتِ العُلوم الشرعية الأُخرى كالحديث والفقه، ولا شك أن ارتباط هذا العلم بالإخلاص له دلالته وأهميته.

في قول هذا الفتى وفِعْلِهِ دليلٌ على أنَّ هذا الفتى لم يكن لديه من دلائل الحقِّ وقواعده الكِفاية اللازمة للتفريق بين التوحيد الذي عليه الراهب، ولا الشرك الذي عليه الساحر، وهذا دليلٌ على أنَّ فِطرته في عيشه في بيئة المَلك الكافر قد مُسِخت وتغيَّرت كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1]، والفِطرة كذلك بذاتها لا تصلح لردِّ الشُّبه،

[1] «البخاري»: ١/٤٦٥/ح١٣٦١.

لأنها ليست علماً كما قال تعالى: ﴿ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨]، فهي صالحةٌ عند عدم وُجود المعاريض، فإنْ وُجِدَ المُعارض من الشرك والفساد فإنها تمسخ وتغيَّر، وهذا بخلاف العلم، فإنَّ العلم يقوى بالشُبه ويزداد صلابةً، إذ يكون حاله مع الشُبه زيادة الأدلة على الحقِّ، وقوة في ردِّ الباطل، ولذلك كان وجود الأعداء سبب قوة الأنبياء وهو مِن نِعَمِ الله تعالى عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج: ٥٢- ٥٤].

فوجود أماني الشيطان أي تلاوته وشُبهه سببُ معرفة الحقِّ في قلوب المؤمنين، وهي سبب إخبات قلوبهم ويقينها على الحقِّ الذي يأتي به القرآن وتأتي به آيات الله تعالى، والفطرة لا تصلح لهذا فهي ليست عِلْماً كما تقدم.

فهذا الفتى احتاج إلى آية كونية تُبيِّن له وجه الحقِّ بين أمر الساحر وأمر الراهب، ولا شك أنَّ زماننا اليوم قد كثر فيه السحرة، وكثرت فيه الشُبه التي تُعيق الحقَّ ومعرفته، مع ما في النفوس مِن أهواءٍ وشهواتٍ تُعطل عَمَلَ الحقِّ بعد معرفته، ولذلك فإنَّ مِن الواجب معرفة أنَّ الحق أبلج، وأنَّ له نوراً، وأن الباطل لجلج وأنَّ له ظلمة، فإنه ليس من عدل الله أنْ يتركَ النَّاس لا بصرَ لهم في التفريق بين الحق والباطل، فهذا كتاب الله بين أظهرهم، فيه آياتٌ محكماتٌ لا يقدر عليها السحرة بالتأويل والتحريف، وهناك السنَّة التي شاعت بين النَّاس حتى صار

الحديث مبذولاً بينهم، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعنيهمُ الحق، ولا يبذلون له الجُهد كما يبذلون لشهواتهم، والشيطان يُزيِّنُ لهمُ التقليد، وهم يظنون أنَّ اختيارهم لرجلٍ متبوعٍ يُوافق ما يحبون ويشتهون مِن الأقوال والفتاوى يعذرهم عند الله تعالى، وكل هذا مِن الشرِّ، وقد تقدمتِ الآيات التي تُبيِّنُ أنَّ التابع غير معذور فيما يتبع من الشرِّ والهوى، ولذلك لو بذل النَّاس بعض جهودهم في معرفة الحقِّ لأدركوه، لكنهم لا يكفون كَدُوَيِّبَّةِ الأرضِ بحثاً عنِ الدنيا وتكثيرها، أما طلب الحقِّ والعلم فالقليل ينصب نفسه له، هذا مع ما في طالبي العلم والُمتفرغين له من مقاصد دنيوية كتحصيل الوظائف والأموال وغيرها، فلا يظنن أحداً أنَّ هناك خفاءٌ في ذاتِ الحقِّ حتى مع كثرة السحرة الُمبطلين، وشُيوعِ الأهواء وغَلبتها، فإنَّ المرض في النَّاس لا في الحقِّ، وأما الباطل فإقبالُ النَّاس عليه لا لخفاء أمره في أنفسهم بل لأنه يُوافق شهواتهم ورغباتهم.

هذا مع أنَّ مِن حِكَمِ الله القَدرية أن لا تخلو الأرض مِن قائمٍ لله بحجة، يقول بها ويُعلمها وينشرها، لكن مِن جهالة النَّاس أن يُسايرُوا أهل الشرِّ وهمُ الأكثر في متابعة «السحرة» ودُعاة الباطل لشُهرتهم، وخفاء أهلِ الحقِّ أو مُطاردتهم وسجنهم، كل هذا مع ما يرون أنَّ أغلب المشهورين من «السحرة» لهم سِمات الوُحوش والذِئاب، لما فيهم سُعَارٌ بهيميٌّ في حبِّ الدنيا والإكثار منها والتنافس عليها، ومثل هؤلاء يعلمُ آحادُ المسلمين وعوامهم أنهم ليسوا على هُدىً ولا هم على سبيل رُشْدٍ، ولا على منهج حقٍّ، ولقد رأينا من معرفة النَّاس بحال هؤلاء الأمور الكثيرة، فإنَّ العامي إنْ سمع شيئاً من هؤلاء على خلاف ما يحب فإنه لا يتورع من سبِّهم وقذفهم بأخْبَثِ الأوصاف وأخَسِهَا، لأنه يعلم حال هؤلاء وما هم فيه.

رؤية الجُموع تنساق وراء الباطل لا لأنَّ هذا الباطل له خفاءٌ في قَذارته وقُبْحِ حاله في أعينهم، بل لأنَّ بابَ هذا الباطل هو باب النَّار، كما قال النبي ﷺ:

«**وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»، ورؤية قِلَّة الواقفين أمام باب الحقِّ لا لِعَجزهم عن معرفته بل لأنَّ باب الحقِّ هو باب الجنَّة، كما قال النبي ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»[1].

لكن مع وُجود دلائل الحقِّ العِلمية في نفوس النَّاس حين تخلو مِن مُتابعة الأهواء والشهوات، ومع وُجود ذَوق الإيمان في القلوب حين تتشرب الحق فتنعمْ به إلاَّ أنه مِن رحمة الله تعالى أن يُقيم لهذا الحقِّ دلائل كونية قَدرية تكون حجة لأهل الحقِّ، كما تكون مِن دلائلِ الاطمئنان وحُصول اليقين، وأهم هذه الدلائل هو نُصرة الحقِّ وبقائه في الأرض، فإنَّ أعظمَ دليلٍ قدريٍّ على صِدْقِ الرسول ﷺ هو ما تحقق له مِن نَصْرٍ على خُصومه وأعدائه، فقد بدأ الرسول ﷺ الدعوةَ رجلاً واحداً، ولم يكن معه إلاَّ زوجه الصديقة خديجة وعَبْدٌ هو زيد بن حارثة وفتىً وهو علي وصديقه هو أبو بكر ﷺ، وقد أطبقَ أهل بلده على عدائه، ثم ما زال مِن نصرٍ إلى نصرٍ حتى تحقق له الفتح الأكبر بدخول مكة، ثمَّ النَّصر الأعظم بدخول النَّاس في دين الله أفواجاً، وبلغَ سُلطانه المشرق والمغرب، وزُوِيَتْ له الأرض، مع أنه كان ينتصرُ في معارك، ويُصاب منه في أُخرى، لكن كانتِ العاقبة له كما قال هِرقل لأبي سفيان، وهذا كله مِن دلائل الحقِّ الذي قال الله عنه: ﴿ **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ [الرعد: ١٧]، هذا مع قِلَّةِ الحقِّ وقِلَّةِ أتباعه، وكَثرة الباطلِ وأتباعه، لكن الله يقول: ﴿ **قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ** ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فأهل الحقِّ لو أطبقتِ الأرض بأجمعها على إزالتهم فلن يقدروا، وإنه بحمد الله قد رأى النَّاس في زماننا عَيَاناً، ولو كان لهم عقول لأبصروا، ولو كان للنَّاس موازين الإيمان لَعلموا مَن هي

[1] «مسلم»: ١٧/١٣٨/ح٧٠٧٩. وهو جزءٌ من الحديث السابق.

الطائفة المنصورة في زماننا، ولكن كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

ثمَّ إنَّ مِن دلائلِ الحقِّ وهي دلائل تابعة لا أصلية هو حُصول الكرامات، وقد عُلِمَ من تاريخ الكرامات، وهي فرعٌ مِن فُرُوعِ الْمُعجزات النَّبويَّة أنها لا تقع إلاَّ وقتَ المحن والابتلاءات، فاقْتِرَانُ الكرامة بالمحنة يكاد يكون مُضطرداً، ثمَّ إنَّ الكرامةَ يحتاجها أهل العلم في إثبات الحقِّ، ويحتاجها المجاهدون لتثبيتِ الحقِّ، فكانتِ الكرامة في هذين البابَيْنِ أكثر من غيرها، وأكثر ما صح مِن الكرامات في تاريخ الأُمَّة كان في هذين الأمرين، وأكثر الكرامات المكذوبة والْمُدعاة إنما هي في أهل البدعة من الصوفية، وما الكرامات فيهم إلاَّ جهالات ومخازي، ومَن قرأ كتاب النبهاني «جامع كرامات الأولياء» عَلِمَ أنَّ الكتاب له عنوانٌ حقيقي آخر وهو «جامع أكاذيب ومخازي المجاذيب والمجانين»، وإنه مِن فضل الله تعالى أنَّ أكثر الكرامات إنما تقع للمجاهدين في سبيل الله تعالى، يراها أهله في زماننا كما رآها أهله في كلِّ زمانٍ.

وقد يخفى بعض مسائل العِلم ومضايقه على المرء مهما اتسع عِلمه، فهناك بابٌ لا يخطئ بعد ذلك وهو باب الدعاء والاستغاثة كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]، فعلى المرءِ أن يبكي بين يدي مولاه مُستغيثاً به أن يمنَّ عليه بمعرفة الحقِّ والاهتداء إليه، وعليه أن يُقدم قبل نجواه أُموراً مِن الخير على قاعدة القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]. فمُناجاة الله تعالى أولى بهذه التقدمة، وكذلك لا بدَّ من الاستغفار، فإنَّ الران على القلب، وكذلك الغين يمنعان حصول العلم، والاستغفار جلاء لذلك كله، وما كان الله ليضل صادقاً طالباً للحقِّ، فهذا سلمان الفارسي أراد الحق وطلبه وُسعه، فتنقلت به صروف الزمان تقلباً بين يدي الله تعالى حتى صار إلى

رسول الله ﷺ ودخل في صُحبته بل رُفِعَ إلى مقام الآل والأهل فقال رسول الله ﷺ : «**سَلمانُ مِنَّا أَهْلِ الْبَيْتِ**»[1].

وهذا الذي فعله الفتى مِن سؤال الله آية يعرف بها الحق من الباطل يفعله طالب الحقِّ في أُمورٍ مُتعددةٍ منها ما هو في مسائل العِلْمِ، ومنها ما كان من القُضاة في الخصومات، ففي حادثة اللعان من حديث ابن عباس في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ بَيِّنْ**»[2] وهي غير قصة هلال بن أُمية مع زوجته، وقد ترجم البخاري على هذا الحديث باب قول الإمام: «**اللَّهُمَّ بَيِّنْ**» وذلك في كتاب الطلاق.

«فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ، الْيَوْمَ، أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى. وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى. فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلُّ عَلَيَّ».

في هذا اللفظ أمور منها :-

أنَّ الولاية كما هي كسبٌ ومجاهدةٌ واتباعٌ وطاعةٌ وعبادةٌ إلاَّ أنَّ فيها نوع اصطفاءٍ، هذا إذا حملنا قول الراهب على الحقيقة لا على باب غَمْطِ النفس، وكذا إذا حملت كلمة: «**أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلَ مِنِّي**» على أفضلية الرُتبة الدينية والاصطفاء لا على معنى مرتبة الأداء، فإنَّ الراهب كان لنفسه، وصار الفتى لنفسه والنَّاس بما أدرك الراهب أنَّ ما أعطاه الله إيَّاه مِن الكرامة هو لمنفعتهم كما وقع في قتل الدابة، حيث قتلها ومضى النَّاس لسبيلهم، وهي قرينة لذلك.

---

[1] «المُستدرك على الصحيحين»: ٦٩١/٣/ح٦٥٩٤ . «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ١٨٩/٦ح ١٠١٣٧ . قال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه: كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات».

[2] «البخاري»: ٢٠٣٤/٥/ح٥٣١٠ . أطرافه ٥٣١٦ ، ٦٨٥٥ ، ٦٨٥٦ ، ٧٢٣٨ . «مسلم»: ١٠٥/١/ح٣٧١٣.

وأما كون الولاية فيها نوع اصطفاء فهذا بيِّنٌ حين يسبق الُمتأخر الُمتقدم كما وقع للفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فإنه سبق في المرتبة من سبقه للإسلام ، وهذا من فضل الله يُؤتيه من يشاء من عباده ، ولذلك قيل : «ليس من سبق ولكن من صدق» مع أنَّ للسبق فضيلة ، كما في كتاب الله تعالى : ﴿ **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ** ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، ثمَّ إنَّ هذه الأُمَّة هي آخر الأُمم ، وهي أول الأُمم دخولاً الجنَّة كما صح في الحديث ، وهي خير الأُمم وأعظمها قدراً وعدداً ، ومع أنَّ النبي ﷺ مأمورٌ بالاقتداء بالسابقين ، كما قال تعالى : ﴿ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام : ٩٠] إلاَّ أنه خير الأنبياء ، وأفضلهم وسابقهم إلى الجِنان.

فهذا فتى كان حائراً يسمع للمُتضاديْنِ ثم يَصدق في طلب الحقِّ ، فيحصل له اليقين ، ثم تقع على يديه الكرامات في نفع النَّاس وشِفائهم ، وفي الحديث : «**خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا**»[1] ، فيُدركِ الراهب بثاقب بصره أنَّ الله اجتباه ورفعه ، وخصه بخاصية الكرامة.

لكن لا يكون الاصطفاء والاجتباء بغير سببٍ ، فإنَّ مِن سُنَّة الله تعالى أن لا يقع شيءٌ في الدنيا ولا في الآخرة إلاَّ لسببٍ ، فهذه القلوب أَوعية ، وهي تختلف في جنسها واتساعها ، وهي كذلك كالأرض ، والنَّاس معادن ، وكل ذلك بما يعلم الله تعالى مِن عَبِيده ، وهو كذلك بحكمة وعدل وهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦** ﴾ [هود : ٥٦] ، وهذه الآية حاكمة على قوله تعالى : ﴿ **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ٢٣** ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، فإنه جلَّ في عُلاه أوجبَ على نفسه مِن غير مُوجِبٍ مِن أحدٍ أن يكون حكيماً لا يفعل ولا يقول إلاَّ على ما قال جلَّ في عُلاه : ﴿ **إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦** ﴾.

[1] «مسند أحمد» : ٣/٢٦٥/ح ١٠٠٧٥ .

وهداية هذا الفتى مع قصد الملك أن يجعله ساحراً ثمَّ يكون ولياً لله إنما هو على سُنن الحقِّ في بقاء الحقِّ وعدم زَواله مهما كاد له أهل الباطل، فإنَّ موسى عليه السلام كاد فرعون كلَّ الكَيْدِ حتى لا يكون، فرباه الله في قصره، وتحت رعايته، ترضعه أُمُّهُ بأُجْرَةٍ من فرعون وبأجرٍ مِن الله تعالى، وهذا يقع في أزمنةٍ وأحداثٍ مُتعددةٍ حيث ينقلبُ قصد الفراعنة عليهم، فما أرادوه مِن شرٍّ وكَيْدٍ للإسلام وأهله يعود خيراً عليهم تحت أنظارهم ورغم أُنوفهم، لأنَّ هذا الدين هو دين الله تعالى، وإذا كاد الكافرون له، فإنَّ الله له كَيْدٌ أقوى مِن كَيْدِهِمْ، ومهما حاولوا طمساً وإبعاداً له عنِ القلوب فإنَّ الله يزرعُ له في الأرض قلوباً خارج حِساباتهم ومقاصدهم، وإنه مما ينبغي أن يخاف منه العاملون في دين الله تعالى أن يقع في قلوبهم أنَّ الدين بحاجة لهم، والحق أنهم هم بحاجة للدين، فإنْ تولواْ أقام الله له رجالاً خيراً منهم، يأتي بهم من حيث لا يحتسبون، ولا يحتسب أعداؤهم، ولقد رأينا بفضل الله فتية لم يسمعوا يوماً عن الإسلام، ولا عاشوا بين أهله، ولا بذل فيهمُ الدُّعاة جُهدهم، فما هي إلاَّ غارة الله تجد سعياً في قلوبهم، فتأخذهم إلى هداية لا يفقهها فقهاء مسلمون عاشوا مع الإسلام وكُتبه ودراسته، وقَوِيَتْ قلوبهم لأفعالٍ جَبُنَ بعض أهل الإسلام عنها، فهذه هي سنة الله مع هذا الدين، ومَن تفكر في تقلب دول الإسلام رأى هذا جَلِياً، إذ رفع شأن هذا الدين وحمى حِماه أبناء المماليك الأَسرى وأمثالهم، وذادَ عن حدوده قبائل أتتْ من مشرق الأرض هم أبناء المُشركين، ولقد رأيتُ لبعضهم جهالات مِن استهزاءٍ وقذفٍ لطوائف الإسلام من غير العرب، أو الذين يُسلمون حديثاً، حيث تراهم هم أقوى النَّاس اندفاعاً للتضحية والبذل، فيعد الجهلة هذا منهم قِلَّةَ فِقْهٍ، أو سُرعة إجابةٍ دون تبصرٍ، وكأنَّ ما هم فيه مِن الخُمُولِ والسُكُونِ، وقبول الذلة وخوف ذهاب النفس والمال والمنصب هو الحِكمة الشرعية التي جاء بها رسول الله ﷺ، فالحمد لله الذي قلب الحق باطلاً في نفوس مَن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم.

مِن فِقْهِ الراهب عِلْمَهُ أنَّ بلوغ المرء مرتبة الأفضلية تقتضي البلاء، فقوله: «**وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى**» دليلٌ على هذه السنَّة التي لا تَتخلف، أي إنَّ الابتلاء قَدَرُ المُهتدين، وقَدَرُ أُمَّةِ الهُدى في هذا الدين، فهو أمرٌ لازمٌ لا ينفكُ عن مهتدٍ ولا إمامَ هُدى، وهذه حقيقة قرآنية علمها الله تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ في مكة، فسورة «العنكبوت» إنما مدارها على هذه الحقيقة وذلك منذ بدايتها إلى نهايتها إذ تُفتح بقوله تعالى: ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣** ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، وقدرُ الابتلاء ليس مرحلة تكون ثم تنتهي، بل هي قدرٌ مُرَافِقٌ لهذا الدين، فقد نزل في المدينة في سورة «آل عمران»: ﴿ **أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢** ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وفي مرحلة خاتمة المطاف في سورة «البقرة»: ﴿ **أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝٢١٤** ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**لا يَزالُ الْبلاءُ بالْمُؤْمِنِ في نَفْسِهِ ومالِهِ وَوَلَدِهِ حتّى يَلْقَى الله وَما عَلَيْهِ مِنْ خَطيئةٍ**»[1]، ولكن القرآن يُطمئن المؤمنين بأنَّ الألم والبلاء ليس خاصاً بالإيمان، بل هو كذلك يُصيب الكافرين فقد قال الله تعالى بعد تلك الآيات من سورة «العنكبوت»: ﴿ **أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤** ﴾ [العنكبوت: ٤]، ولذلك قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ **أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا** ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وإنْ فات الكافر بعض الألم في الدنيا فإنَّ هناك مِن الألم والعذاب الأشد الذي ينتظره، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ**

---

[1] «المُستدرك على الصحيحين»: ١/٤٩٧/ح١٣١٤. وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٦٠ - ٦١].

ولكن من جهل الكافرين أن يستعجلوا العذاب، كما في سورة «العنكبوت»: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٥].

هذا مع ما ختمت السورة به بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذا قدرُ المُهتدي، وهو قدرُ أئمة الهُدى، فهم لا يهربون من الحقِّ مخافةَ ظرفه الذي يُلازمه، لأنهم يعلمون أنَّ عاقبة هذا هو الهداية والعِلم والتقوى، وهي أركان الإمامة والقيادة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

هذا القدرُ وعظَ لُقمان ابنه به، كما قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

وهو ما أنبأَ به ورقة بن نوفل رسول الله ﷺ عندما عرض عليه حال الوحي معه فأخبره أنه سيُعادى بل سيُخرجه قومه[1].

[1] «صحيح البخاري»: ١/٤/ح٣، ٤/١٨٩٤/ح ٤٩٥٣، ٦/٢٥٦١/ح ٦٩٨٢. «صحيح مسلم»: ٢/١٦١/ح ٣٥٨.

فمجيء البلاء للمؤمن وعدٌ إلهيٌّ، بل هو بُشرى بصواب الطريق ومظنة النَّصر والظفر كما فَقِهَ مِن ذلك الصحابة ﷺ بقدوم الأحزاب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فوقوع البلاء والألم يُصاحب البُشرى كذلك، فهذه مريم الصديقة تأتيها الملائكة فتقول لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، فسمتِ الملائكة ما يقع لها بُشرى، مع ما وقع لها من الألم، وكذلك ما قيل فيها من الشرِّ الذي قال الله فيه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦]، حتى إنها لما تصورت ما سيُقال عنها من الشرِّ قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣].

فلا نصرَ بلا ابتلاءٍ، ولا تمكينَ بلا صبرٍ، ولا بُشرى بلا ألمٍ، ولا يكون الحق أبداً مُصاحباً للشهوة والهوى والراحة، ولا تحصل الإمامة إلاَّ بالزلزال، وقد صدق الحبيب المصطفى ﷺ عندما سُئل: «يا رسولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قال: «**الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبتَلَى الرَجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَة، زِيدَ فِي بَلاَئِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقة، خُفِفَ عَنهُ، وَمَا يَزَالُ ألبَلاَءُ بِالْعَبدِ، حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهرِ الأَرْضِ، لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَة**»[1].

هذه من سِمات الحق، يُعرف الحق بها ولا يعيَّر بذلك كما يفعل الجهلة، فحين يُصاب الداعي والمجاهد في أهله وماله، فإنَّ ذلك دليلَ صِدْقٍ أنه على النهج السليم والطريق المستقيم، أما هؤلاء الذين قاسوا صواب أفعالهم بما حصل لهم

[1] «مسند أحمد»: ١/٢٨٠/ح١٤٩٣ .

من رفع البلاء فميزانهم باطلٌ وقِسْمَتُهُمْ ضِيزَى، فبغير هذا الميزان يُعرف الحق، بل لو أبصروا الحق في دين الله تعالى لَعَلِمُوا أنَّ هذا ضدَّ ما يقولون.

لقد ابتلى الله المجاهدين، فكاد لهمُ الكفر كيده، وأراد حَصرهم وإبادتهم، فماذا كان؟

لقد شاع عُرفهم في كلِّ مكانٍ، وسرت كلماتهم في القلوب، وانتقلت جمرات الإيمان تشتعل في ساحاتٍ أُخرى، فحيث ضاقَ مكانٌ فُسِحَ آخرٌ، وحيث مات شهيدٌ بعث الله المئات، وأما ما وقع من السجن لرجالٍ وجنودٍ فما ينبغي لهم أن يهربوا من ذلك بما يُقال له «المُراجعات» والمُصالحة، فوالله إنْ وقع ذلك فهو الشر عليهم لا على دين الله تعالى، وهو الاستبدال الذي حذر الله منه الناكثين والهاربين، فلو تفكروا في مقالة يوسف عليه السلام لَكان السجن أحب إليهم كما قال: ﴿ **رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [يوسف: ٣٣]، ذلك لأنَّ هذه مدرسة يرقون بها في عِداد الصالحين، ولينظروا إلى أنفسهم أنهم جنود الله يعدهم في الخفاء، فإنَّ دفتر الزمان وتقلب الدول والأيام لم يتوقف ولم تُغلق دَفتاه، فليصبر هؤلاء فلا يدرون ماذا يكون لهم بعد ذلك من عاقبة الصبر، ولن تكون عاقبته إلاَّ خيراً لو كانوا يعلمون.

وليتفكرِ المرء بالحديث المُتقدم وقوله ﷺ: «**فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَة ، زِيدَ فِي بَلاَئِهِ**»، فما يحاوله البعض من إعطاء الدنية في دين الله، وإرضاءِ الكفر ببعض الكلمات التي تُعْفِيهِمْ من عاقبة الخلود في جهنَّم بإسقاط حُكْمِ الردة عنهم، وبوجوب قِتالهم، أو بلعبة البراءة من طائفة الجهاد ورجالها إنما هي دليل رقة في الدين لما تجر من رفع البلاء بغير الطُرق التي يحبها الله تعالى من الصبر والدعاء وارتقاب الوعد الإلهي بالفرج واليسر بعد العُسر للمُبتلين، فالمرء إن زاد صلابة وتمسكاً زاد عليه البلاء، ولكن زيادة البلاء الفرج من الله، وهو بُشرى اليسر بعد العُسر مِن الله تعالى، وهذا قانونٌ سنني، أما إن ذهبوا يُرضون أعداء الله بما فيه

معصية فإنَّ البلاء سيقف كما يحبون لكن لا كما يحب الله تعالى لهم، وسيذهب عنهم الوعد بجعلهم أئمة هُداة لأهل زمانهم ولمن بعدهم، وسيرفع الله عنهم وكالته وحسبه، وسيكلهم إلى أنفسهم، وهذا أعظم ما يُصيب العامل لدين الله تعالى، بل هو أعظم العذاب في هذه الدنيا.

لقد هربَ الراهب من البلاء، وطلبَ من الفتى أن لا يخبر عنه، وفي هذا دليل أنَّ حال الراهب هو الانفراد إلى نفسه وعدم التصدي للباطل ومُواجهته، لكن أبى الله إلاَّ أن يسوق له الشهادة رغم أَنفه كما سيأتي، ولم يكن من دين المرء في هذه الحالة أن يذهب ليشتم الفتى أنه جرَّ عليه البلاء وساق إليه العذاب والقتل، فإنه لو فعلَ ذلك لَكانَ ضالاً جاهلاً، بل هو يعلم أنَّ البلاء قدر الصالحين، وحيث هربَ منه بالعزلة وعدم المُواجهة إنما هو لما يعلم من ضُعف نفسه لا مِن ذكائه وحُسْنِ تدبيره كما يظن الكثيرون اليوم، فحين يأتيه البلاء إنما يعلم مَن فَقِهَهُ أن هذا خيرٌ له في دينه، وما عليه إلاَّ الصبر الجميل، أما من يذهب في اتهام الفتى بالتسرع والطيش وعدمِ الحكمة، وأنَّ عدم تدبيره أفسد عليه ما بنى نفسه له عشرات السنين مِن التخفي وعدم اكتشاف المَلك وزبانيته له فهذا من جهل المُعاصرين اليوم، وهم كثيرُو العدد، ولكن جهالتهم في هذا الباب أفسدت عليهم دينهم، ولا يُقصد تجهيلهم من سرِيَتِهِم وتخفِيهم فإنَّ هذه مرتبة يرضاها الله من المُتعبدين، لكن الجهل هو عدم الفقه في التعامل مع البلاء الذي يقع عليهم بفعل الفِتيان الذين أرادوا أن يسبقوا إلى مراتب أعلى، ومناصب أرفع في دين الله تعالى، فحين يتهمونهم أنهم سبب ما يقع عليهم وعلى المسلمين من بلاء الشهادة والسجن والعذاب، ويعدون هذا من الفساد في الأرض فهذا هو منتهى الجهل والضلال، وهو مِن قِلَّةِ الفقه في أمرِ قَدَرِ هذا الدين وسُننه.

لقد نصح الراهب الفتى بعدم الإخبار عنه حين يقع في البلاء، وهو قد أيقن أنه سيقع في البلاء، ولكنه رجا أن يصبر ولا يخبر عنه تحت السياط والعذاب، فلم

يصبر الفتى وأخبر عنِ الراهب، فكان هذا خيراً ساقه الله إلى الراهب فإنه نال الشهادة، وهي مرتبة هرب منها طُول عُمره مُتخفياً، لكن كان قدر الله له خيراً من تدبيره واختياره لنفسه، وكان باب هذا الخير هو الفتى المُؤمن المُندفع إلى الحقِّ وطلبه والدعوة إليه.

ولعلَّ من جهالات وحُمق البعض أن يُغلق على نفسه باب البلاء بأنْ يغلق لسانه عن تعليم الفِتيان الحق، هذا إنْ استقر في نفسه أنَّ اندفاع الفِتيان وحماستهم لن تمنعهم تحت السياط من الإخبار عنهم وكشف مُعَلِميهِم، وخاصة إنْ كان للمرء في هذا الباب تجربة سابقة فهو على قاعدة المثل العامي - سدّ باب الشر وغَنِّي له -، فهو حتى لا يكون تحت رحمة فتىً مُنْدَفِعٍ، قد أخذ منه الحق فنشره وعمل به، فأُخِذ وعُذِب فدل عليه، والعجب من هؤلاء أنهم يسبون الفِتيان لاندفاعهم وحماستهم وقوة إرادتهم في أخذ الحقِّ والدعوة إليه والعمل به مع عدم تحملهم للسياط تحت التعذيب، وكأنَّ شرط البلاغ والعمل بالحقِّ أن لا يكون المرء من أهل هذه الآية: ﴿ **مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ** ﴾ [النحل: ١٠٦]، وهي آيةٌ وَسِعَتِ الصحابة وهم أشجع البشر وأصبر الدُّعاة والمجاهدين، وما منهم إلاَّ وقد قال كلمة كُفْرٍ تحت العذاب إلاَّ بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فمتى كان شرط الشجاعة في قول الحقِّ، ومتى كان شرط العمل لدين الله تعالى والجهاد في سبيل الله تعالى أن لا يضعف المرء تحت السياط والعذاب فيقول ما أباحه الله للمُكره؟

إنَّ عيب هؤلاء «الحُكماء الجُبناء» على الشباب بقِلَّةِ الصبر تحت السياط، والإبلاغ عنهم، وسبِّهم بسبب ذلك إنما هو سبيل ضلال، وجهلٌ في هذا الدين وقِلَّة فقهٍ فيه.

تقول بوسع النَّاس أن يهربوا من البلاء كما هربَ الراهب، ويُوسْعِ هؤلاء «الحُكماء» أن يستتروا، لكن لا يجوز لهم ولا لأحدٍ من المسلمين أن يُوجب على الفِتيان أن يسكتوا سُكوتهم ويعملوا عملهم إذا كان قولهم وعملهم يجر على الساكتين البلاء والقتل في سبيل الله والسجن والعذاب، لأنه ليس من شرطٍ شرعيٍّ يُوجب على «الفتى» أن يمنع وُقوع البلاء على المُهتدين وأهل الإسلام، ذلك لأنَّ البلاء قدرُ هذا الدين، بلِ الواجب عليهم إنْ وقع عليهمُ البلاء بفعل الفِتيان أن يصبروا كما صبر الراهب، وأن يعترفوا أنَّ الفِتيان خيرٌ منهم كما اعترف بذلك الراهب.

لقد أخذ الفتى العِلْمَ من الراهب، ولم يكن لديه مصدرٌ آخرٌ يأخذ عنه، ولكن بلغ الفتى مبلغاً لم يبلغه الراهب، والفارق أنَّ الراهب اختار السلامة وعدم المُواجهة، ولكن الفتى لم يرضَ بذلك بل أخذ يعمل بما أعطاه الله من الكرامات في نشر الدعوة وتبصير النَّاس، وهو ما أدركه الراهب من حال الفِتيان في هذا الأمر، وهذا الذي كان منه بعد ذلك، وقد ظهر عزم الفتى وقوة اندفاعه في معرفة الحق ما قام به في أمر قتل الدابة، والمرء لا يفعل هذا إلاَّ إذا كان له جسارة قلبٍ، واندفاع إرادةٍ، وهي سِمة الفِتيان، إذ يجتمع فيهم عزم القلوب وإشراقة الحقِّ في مطالعه الأُولى، وهذا لا يكون في غيرهم، فإشراقة مطالع الأنوار في بدايتها لها فرحة ومعاني يعجب لها من عاش معها الزمن الطويل، ولهذا لما جاء أهل اليمن زمن أبي بكر رضي الله عنه فقرأ عليهم القرآن بكوا، فقال: «هكذا كُنا زمن رسول الله ﷺ ثم قست قلوبنا» وهذا من غمطه لنفسه رضي الله عنه، لكن للبدايات معاني عظيمة تحدث من الآثار ما لا تكون للمُعتاد عليها، كما أنَّ للفِتيان عزائم عدمِ الخوف من العواقب، وهذا في باب الطاعات يحبه الله تعالى ويرضاه، فإنَّ كثيراً من الأحكام التي يعيشها الشيوخ والكبار تنتج بسبب الإخفاق المُتكرر، فيكون فيها اليأس الذي يمنع العمل، وهذه تتخفى في بعض جوانبها بسِمَّة

الحِكمة وليست كذلك، فإنَّ الحكمة لا تعني عدم العمل، إنما تعني العمل مرةً بعد مرةٍ، وكل مرة يكون فيها الإتقان أكثر من سابقتها، أما ترك العمل والرضوخ للواقع تحت باب الحكمة فهذا خطأٌ في الاسم وفي الحُكْمِ كذلك.

لقد كان مِن حِكمة الراهب في هذا الباب أنه لم يمنعه من العمل، ولا وقفَ أمامه يعظه أن يستتر استتاره، بل قال له: «**أَنْتَ اليوم أفضل مني**»، إذْ سلكتَ مسلكَ المُواجهة، ولكن بصره بالعاقبة، ولم يجعل معرفته بالعاقبة سبيلاً للتخويف، ولا لإرجافه حتى يسلك مسلكه بالاستتار والسكون وعدم المُواجهة، إنما طلب منه شيئاً خاصاً لنفسه، وذلك لِما يعلمُ من حاله، وهذا من فضل الراهب وعِلمه ووضعه الأُمور موضعها، وفي هذا هداية لطُرق تعامل النَّاس في مراتبهم، فإنَّ الأدنى لا يعيب على الرفيع مسلكه، ولا من رضي سبيل المُواجهة تبارك عمله مخافة أن يلحق بالأدنى الضرر والبلاء، ولا بالمُبتلى في سبيل الحق بفعل غيره المُجتهد للمعالي بقادحٍ بمن ساق إليه البلاء بغير اختياره، هذا لأنَّ كل هؤلاء لهم حب للدار الآخرة، محتسبين الأجر ولِقاء الله تعالى، لكن العاقل له بصرٌ بنفسه وقُدرته، ولكن له عِلْمٌ وفِقْهٌ بقدر هذا الدين، فإنْ فاتَ أحدُ الأمرين؛ أي ذِكْرَى الدار الآخرة وفقه قدر المُهتدين وأئمتهم، فإنه يُوقِعُ صاحبهم فيما نراه من جهالات أهل هذا العصر من سبِّ الفِتيان وقذفهم بتُهمة عدمِ الحِكمة، ومن تفسير البلاء أنه يقع على معنى جهلِ السالكِ بطُرُقِ الحِكمة في الدعوة والجهاد، وهذا يقع من رجال الفتوى والمواعظ والقُصَّاص، فيحصل بما يقولون ويُفسرون الضرر والخصومة، كما يكون في أقوالهم حجة للكافرين على المهديِّين، إذ تكون أقوالهم في صف الكُفر وأهله، وهم يرون ذلك عَياناً.

تعاقب البلاء على المَهديِّين وأئمتهم ألجأ العقول الكُلية والهمم الكسيحة إلى ترك العمل، وألجأ الجُبناء إلى ترك طريق الحقِّ والتنازل عن بعضه الذي يُغْضِبُ الأعداء والكفار، مع أنه ما مِنْ بلاءٍ وقع منذ سقوط الخلافة في بلدٍ من بلاد

المسلمين إلاَّ كان عاقبته على أهل الإسلام أعظم خيراً، فإنَّ الهجرة نشرت الخير، وإنَّ تعاقب الفِتن قد رقى العلوم والأفهام، وعمم التفكر والاعتبار، وما كان لدين الله تعالى أن يصل إلى هذه المرحلة من قوة المُواجهة وانفراده في الأرض بمواجهة الطواغيت إلاَّ بسبب ما حصل من حلقات الابتلاء في كلِّ بلدٍ من البلاد، وقد مضى في هذه المراحل شُهداء والآم لكنها مما يحبه الله لعبيده، إذ ترفع درجاتهم، وتُبصر المسلمين بحال أعدائهم، ولذلك كان في كلِّ مرحلةٍ أن خرج منها صفوة هي أقوى إدراكاً لدين الله وواقعها، فسارت دعوة الله ودينه مُتهادية بين هذه الابتلاءات ينتظم فيها صفوة تعقب صفوة حتى صارت إلى هؤلاء الفتيان الذين يقفون اليوم موقفَ الأنبياء وأتباعهم في كسر الأصنام وبناء الأُمَّة التي تهدمت حُصُونها من الداخل قبل أن تنهار معالمها وهياكلها أمام خصومها.

«وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ»

في هذا الفِعْلِ فِقْهٌ مُهِمٌ للدَّاعي والمُجاهد، وهو قِيام الدَّاعي إلى توحيد الله تعالى بحقوق النَّاس، ونشاطه في ردِّ ما يُصيبهم مِن أقدارٍ تُؤذيهم وتُرهقهم، ذلك لأنَّ البعض يظن أنَّ انشغاله في بيان حقِّ الله تعالى، وهي مهمة الداعي الأُولى، تمنعه من جهاده ضدَّ ظُلم الظالمين وفساد المُفسدين، فإذا قيل له عن ظاهرة ظُلْمٍ غلبتْ في بلدٍ صَعَّرَ خَدَّهُ لها زاعماً أنَّ قِيامه بدفع الظُلم يُشغله عن نشاطه في نشر التوحيد وحقِّ الله تعالى في الحُكم والتشريع ومُقتضياته، وهذا خطأٌ على منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، وخطأٌ في سياسة الدعوة، وخطأٌ في فَهْمِ مهمة الدَّاعي والمجاهد في الأرض.

فهذا الفتى أعطاه الله قوة وكرامة نفع النَّاس ودفع الأمراض عنهم، فعمل بها، واتخذها سبيلاً لتعريف النَّاس بحقِّ الله تعالى في تَأَلُّهِهِ وتوحيده، فحصل لهمُ النفع في بابين؛ باب التوحيد وباب دفع المرض عنهم.

وهذا يوسف عليه السلام أعطاه الله فِقْهَ تأويل الرُؤى، فحيث سُئِلَ عن رؤيا أجاب سائليه، وهذا مِن النفع لهم، فقد سأله صاحِبَيْهِ في السجن عن رُؤاهم فأجابهم بلا عوضٍ، فقدَّم للجواب بيان توحيد الله تعالى في موعظةٍ عظيمةٍ هي أبلغ ما تكون في الحِكمة والرِفْقِ.

ثمَّ لما جاءه السائل عن رُؤيا المَلك، فأجاب عنها ولم يسألِ العَوض، وهذا خلاف ما تقوله التوراة، فإنَّ التوراة ذكرت أنه طلب الأُجرة والعَوض مُقابل تأويله، وهذا لا يُعرف من الأنبياء، وإنْ كان جائزاً لآحاد النَّاس كما وقع في قصة أخذ العَوض عنِ الرُقية[1]، لكن يوسف عليه السلام أجابَ مُحتسباً مُحسناً، وهذه صفته في القرآن: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: ٣٦]. بل لم يذكرِ القرآن عن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم أنه عاتبَ صاحبه الذي نسيه في السجن ولم يذكره حتى احتاج إليه لتفسير رُؤيا المَلك.

فقيام الداعي بشؤون النَّاس كما كانت الأمانات والودائع في عُهدة رسول الله ﷺ فعقب علياً لِيُؤديها للنَّاس هو من أعمال الداعي والمجاهد، وكل هذا يفعله حِسْبَةً لله تعالى، حتى لو مات في سبيل ذلك؛ أي في سبيل دفع الظالمين عنِ المظلومين، إنما يكون موته شهادة في سبيل الله تعالى، ثم إنَّ النَّاس بهذا يعلمون صِدق الدُّعاة وقوة دينهم وصلابتهم فيما يدعون إليه، كما يرون فيهمُ الرحمة على الخَلْقِ، والشفقة على المظلومين؛ مسلمين وغير مسلمين، لأنَّ من أساليب الشيطان وجُنده وكيدهما هو الكذب على الدُّعاة والمجاهدين، واتهامهم بحب

[1] انظر: «البخاري»: ١/٧٩٥/ح٢٢٤٢ . وسيأتي ذكره في الصفحات الآتية .

العُلُوِّ والتسلط، وقذفهم بالاتهامات الباطلة التي هم أحق بها وأهلها، فحُسْن سيرة الداعي والمجاهد في هذا الباب سبيل هداية للنَّاس لالتحاقه بالحق وأهله، كما أنَّ سُوءَ خُلق الدَّاعي وعدم اهتمامه بشؤون النَّاس سبيل صدٍّ عن سبيل الله تعالى.

لكن يحُذر في هذا الباب من أُمورٍ أهمها أن لا تصبح هذه الأعمال أصلية، ويُصبح الجهاد في سبيل التوحيد وتحكيم شرعه تابعاً فَرْعِياً، لأنَّ الواجبَ هو أن تُتخذ هذه الأعمال الصالحة رافعة دافعة مُعينة على الأصل، لا أن تُتخذ بديلاً، والقاعدة الأصولية تقول: «إذا عاد الفرع على الأصل بالإبطال بطل»، ومن معاني هذه القاعدة فيما نحن فيه أنَّ ترك الدعوة لأصل الدين وبيان المُعاندين له من المُشركين الذين شرَّعُوا للنَّاس أديان الباطل، والانشغال عن جهادهم بالأعمال الصالحة التي فيها منافع للنَّاس غلطٌ وسوء تقدير، فإنَّ الهداية أن تُتخذ هذه الأعمال سبيلاً للدعوة وتقريب الحقِّ للنَّاس، وكذلك لا ينبغي للمجاهد أنْ ينشغلَ بأعمالِ الحِسبة التي لا يفهم النَّاس وجهها وهو في حال الجهاد، فالمجاهد إنما قوة دوامه بحبِّ النَّاس له، ولو أفسدَ قلوب النَّاس بأعمالِ حسبةٍ جائزةٍ لَعَادَ فِعْله بالضرر على الجهاد، وهذا سوء تقدير وقِلَّة حِكمة، وقد عفا الشارع عنِ المجاهد إقامة الحدود في ديَّار الكُفر وما كان في معناها مخافةَ المَفسدة، فأن يتركها المجاهد في غير زمن التمكين أولى بالعمل والتقدير، وعلى كل فهذه مسائل طويلة تحتاج بنفسها إلى مصنفٍ مستقلٍ لاضطراب النَّاس فيها، فزعمُ البعض أنَّ الحدود لا تُقام إلاَّ مِن قِبَلِ الإمام ليس على إطلاقه، كما أنَّ تعامل بعض المجاهدين في ظروفٍ أشبه بديار الأعراب وكأنَّ حالهم هو حال الإمام المُمكَّن غير سديد، بل قد غلطَ بعضهم في تبني مسائل فقهية كوجوب تغطية الوجه وجعلها شريعة مُلزمة للنَّاس في هذه الظروف، وهو خطأٌ شنيعٌ قبيحٌ لو فعله الإمام المُمكن فكيف في ظروفٍ ليس فيها إلاَّ صورة التمكين الخادع، كما أنَّ هناك من الدُّعاة

مَن مَنَعَ النفير إلى مواطن الجهاد لدفع الصائل عن أعراض المسلمين ونفوسهم تحت دعوى أنَّ ظروف هذه البلاد لا تسمح بإقامة حُكْمِ الإسلام ودولته، وكل هذه صور تحتاج إلى بيانٍ شرعيٍّ يُعرِّفُ المسلمين مهمتهم، ويكشف للمجاهدين سبل تحقيق رضى الله تعالى ومصلحة الإسلام، لأنَّ كثيراً من المجاهدين يغلطون في حمل خُصومات العِلْمِ إلى ساحات الجهاد، فحمل خصومات هذه المسائل وهي بين أهل العلم والمسلمين إلى الجهاد في سبيل الله تعالى الذي مهمته الأُولى في زماننا توجيه الحِراب كلَّ الحِراب إلى صُدور أعداء الدين خطأٌ وإثمٌ وانحرافٌ، فما أسرعَ أن تنحرفَ الحِراب إلى خُصوماتٍ داخليةٍ، وبهذا تحصل الفُرقة ويكون التنازع وذهاب الريح.

الأصل هو توحيد الله تعالى، وإخراج النَّاس من عِبادة غير الله تعالى إلى عِبادة الله، وإخراج النَّاس مِن ظُلم القوانين وأزْلاَمِهَا إلى رحمة الإسلام وعَدله، ودفع فساد المُفسدين الكبار الذين همْ سبب كل فسادٍ وانحرافٍ، فما حقق هذا الأصل كان صائباً وحقاً، وما عطله كان ممنوعاً، فإنْ كان حقاً في نفسه كان سبيله التأجيل حتى يأتي وقته، وإنْ كان غير ذلك لم يُلْتَفَتْ إليه في كلِّ وقتٍ.

لكن كثيراً من النَّاس يعلمون الحقَّ وأهله من خلال قضايا حياتهم الفِطرية، فيكرهون الظُلم، ويحبون العدل، كما أنهم يكرهون الفساد ويحبون الصلاح، فحمل المجاهدين لقضايا أُمتهم التي تحقق لهمُ العدل والصلاح، وتدفع عنهمُ الحيف والظلم والفساد يكشف لهم محاسن الجهاد والمجاهدين، ويدفعهم للحوق بهم ونُصرتهم ودفع الأعداء عنهم، وهذا كله من سبيل دعوة الأنبياء وطُرقهم في بيان الحقِّ الذي يدعون إليه، ومما يُؤسف له أنَّ أخطاء المجاهدين في هذا الباب في زماننا كثيرة ومُتعددة، وعامتها ينشأ من ضغط الصغار على الكبار، ويقوم بها مَن لا يعرف مهمة الجهاد في تعبده العام ومقاصده العُظمى، لأنَّ هؤلاء الصغار يعيشون خُصوماتهم الخاصة التي كانت في مساجدهم قبل التحاقهم بالجهاد

أعظم مما يعيشون قضية الإسلام نفسه، كما أنَّ بعضهم ما زال يعيش ظلاً لخصومات مشيخية نشأ عليها، وهذا من خطأ المُربين لأنهم ما زالوا في حالة عيشٍ خارجَ الوقت، أي يعيشون التاريخ الماضي حيث كانت معارك العلماء داخل دولة الإسلام، وكأن أعظم القضايا اليوم هي قضية التقليد والمذهبية، أو قضية السبحة والدعاء الجماعي عَقِبَ الصلوات، مع أنَّ الإسلام اليوم مهددٌ في أصله، والحرب ضدَّ وُجوده ابتداءً، فتعظيم المشايخ لهذه المسائل وخُصوماتهم الداخلية حولها، وعدم انتباههم لمعركة الإسلام الحقيقية انعكس على الشباب، فلما طاروا إلى الجهاد وكان بعض هؤلاء التلاميذ الذين كان لهم سبق التلقي على هؤلاء المشايخ فقد أخذوا هذه الأمراض معهم إلى ساحات الجهاد، فما أن رأواْ نوع نَصْرٍ حتى بدؤوا يُعلنون انتصار مسائلهم العِلمية هذه باعتبارها قضايا إسلامية أصلية، وليست كذلك البتة، فما أَدري كيف يحق لحاكمٍ أن يُعلن أنَّ تبنيه لفريضة غِطاء الوجه تجعله يفرض هذا الرأي على أُمة الإسلام؟ فهذه مسألة خلافية مجالها مناظرات أهل العلم، وللنَّاس فيها سعة في كلِّ وقتٍ وزمانٍ، بل يشتد عجبك أن يمنع حاكمٌ مسلمٌ في زماننا أهل بلدٍ ومصرٍ من أمصار المسلمين أن لا يُشاهدوا «التلفزيون» أو «القنوات الفضائية» أو «شبكات الانترنيت»، والمرء لا يدري من أين يأتي لهؤلاء هذا الفقه الغريب، فمثل هذا الشذوذ لِعُجْبِهِ ومخالفته لمصالح الإسلام لا يقف المرء منه إلاَّ موقف المصدوم الساكت.

ثمَّ يشتد الشذوذ أن تتحول طاقة الجهاد ضدَّ المُخالفين لهذه المسائل، ويُصبح «الصغار» و«المُتسلقون» بسبب النَّصر الذي تحقق بعضه لا هَمَّ لهم إلاَّ التجسس ومُلاحقة النَّاس في هذه الأبواب، فتبدأ سنة الله تعالى عملها في الفُرقة وإعراض النَّاس ومُعاداتهم لأهل الحقِّ، فما هي إلاَّ عاقبة واحدة نراها من هؤلاء وهو الأثر السيئ على الجهاد والمجاهدين، ذلك بأنَّ النَّاس سيقولون: لقد خرجنا من جورٍ إلى جورٍ آخرٍ، ومن عذابٍ إلى عذابٍ آخرٍ، وكل هذا من عاقبة تولي

«الصغار» وترك المجالات لهم بقيادة السفينة وتولي أمرها العظيم، وهؤلاء لا يعلمون خطورة الخطأ اليسير في الجهاد، فإنَّ الخطأ في الجهاد مهما كان يسيراً تكون عاقبته الندم والهزيمة والمصائب، بلِ الجهاد إنْ وقع فيه الخطأ وقع في يد أعدائه فاستغلوه ونمّوه فارتدَّ على المسلمين عذاباً وآلاماً وهزيمةً، وخاصة في وقتنا هذا حيث جهاد أهل الإسلام يُؤسس للقواعد، ويعمل جهده لإعادة رأس المال، كما أننا أمام أعداءٍ لهم كيدٌ وقُدرات لم تكن لأُمَّةٍ مِن أُمم الكُفر السابقين، فالأخطاء اليوم مهما كانت يسيرة فإنَّ عاقبتها خطيرة، ومَن لم يتعامل مع الجهاد تعامُلَ الحُكماء، وتعامُلَ الكبار داسته سُنن القَدر، لأنَّ هذه السنن لا تُحابي أحداً، ولن تتغيَّر بالنوايا الحسنة والله يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧]، ولا يكفي المرء أن يكون على الحقِّ في ما يعتقد بل يجب أن يكون على الحقِّ في إدارة هذا العلم، كما أنه يجب عليه أن يعرف مراتب الحق وطُرق تمكينه، وهذا بابٌ من أبواب العِلْمِ التي هي على مرتبة عِلْمِ العِلَلِ في الحديث وهي التي لا يُدركها إلاَّ أهل الرسوخ والمُعاناة، فمعرفة الشر من الخير يُدركه الكثير، لكن إدراك خير الخيريْنِ وشر الشريْنِ هو فضلُ الله يُؤْتِيهِ من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

«فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ. فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ. فَقَالَ: مَا هَهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ. فَشَفَاهُ اللهُ».

في هذا اللفظ أمور وفوائد منها:ـ

كان مِن مِعْيَارِ ذكاء بلقيس مَلكة سبأ في معرفة الفَرق بين الملك الذي يطلب الغلبة والعلو وبين الملك صاحب الدعوة هو معرفتها بمرتبة نظره إلى مال الهداية، كما قال تعالى على لسانها: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل: ٣٤-٣٥]، هذا مع ما رأتْ من هيبة الكتاب الذي وصلها وعزة صاحبه وكرامته، كما قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النمل: ٢٩]، ولما كان سليمان صاحب دعوته في مُلكه قال لحملة الهدايا: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل: ٣٦]، وهذا الفتى في هذا الحديث تعامَلَ مع الهدايا تعامُلَ الداعي الذي لا ينظر إليها بلهفةٍ وسُعار، بل هو غنيٌّ عنها بما أغنى الله صدره، فهو لا يتخذ ما أكرمه الله مِن عِلْمٍ وهدىً وكرامةٍ إلاَّ لنشر الدين وإخراج النَّاس مِن الظُلمات إلى النُّور، وهذا فارقٌ بيِّنٌ بين عالِمِ السُوءِ وعالمِ الخير، فإنَّ عالم السوء يتخذ دين الله مطية للدنيا وإكثار الشهوات، وأما عالم الخير والهُدى فهو على سنن الرسول ﷺ حيث عاش كفافاً وهو الذي لو أراد لسارت جبال مكة معه ذهباً، ولذلك فإنَّ سمة أئمة الهُدى والدين الزهد في الدنيا ولا يملكون منها إلاَّ الكفاف، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ. وَمِثْلِهَا قَرَظاً - أي ورق السلم يدبغ به - فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ. وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ. قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ - أي سالتا بالدموع -. قَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ**» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ وَمَا لِي لاَ أَبْكِي؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ. وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى. وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ. وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَصَفْوَتُهُ. وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ!. فَقَالَ: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضى أَنْ**

تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟»..»[١]، فهذا هو حال النبي ﷺ وهذا هو متاعه في الدنيا، وهي سِمَّة الأئمة مِن بعده، لا يُعرف عن واحدٍ منهم ما نراه اليوم ممن يزعم الانتساب للعلم والفقه، لأنَّ زُهْدَ العالم والداعي سبيل لقطع شياطين الإنس عليه، فإنه إنْ عُرِفَ عنِ العالِمِ والفقيه حب الدنيا بذل له أهلها منها حتى يُصيبوا منه في دينه، أما إنْ عُلِمَ عنه أنه ليس من أهلها انقطعت رغباتها بالوصول إليه والإصابة منه.

وبذل الدنيا هي من علامات الشر في هذه الأمة، كما قال رسول الله ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري: «**إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي، مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا**»[٢]، وقد فسَّر سبب هذا الخوف في حديث عَمْرُو بْنَ عَوْفٍ الأَنْصَارِي رضي الله عنه، وَهُوَ حَلِيفُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيَ وَكَانَ شَهِدَ بَدْراً مَعَ رَسُولِ اللهِ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ. يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ. وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ. فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ. فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ. فَوَافَوا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ. فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ انْصَرَفَ. فَتَعَرَّضُوا لَهُ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ حِينَ رَآهُمْ. ثُمَّ قَالَ: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟**» فَقَالُوا: أَجَلْ. يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:-

«**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ. فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[٣]».

---

[1] «مسلم»: ١/٦٩/ح٣٦٤٦.

[2] «البخاري»: ٢/٥٣٢/ح١٤٤٧. «مسلم»: ٧/١٢١/ح٢٣٧٦.

[3] «البخاري»: ٣١٥٨. طرفاه في: ٤٠١٥، ٦٤٢٥. «مسلم»: ٢٩٦١.

والقصد أنَّ الفتى رفض الهَدية واشترط الإيمان لعلاج الجليس، وهذا جائزٌ في الشرع، فإنَّ أصحاب الابتلاء والحاجات والمُعوزين تدخل عليهمُ الهداية أكثر من غيرهم حال رجاء كشف ما بهم، فهذه أم سليم الأنصارية ـ والدة أنس بن مالك ـ تشترط لزواجها بأبي طلحة الأنصاري أن يُسلم، وقد أسلم رضي الله عنه، وكان من خِيرة الأنصار بذلاً وجِهاداً وقُرْباً من رسول الله ﷺ، وهذا ليس من الإكراه في الدعوة، بل هو من استغلال الظرف المُلائم لقبولها، فإنَّ أقواماً يدخلون الجنَّة بالسلاسل كما في الحديث[٢]، إذ يُساقون إلى الإسلام كرهاً على غير رغبةٍ منهم، أو في لحظات دفع من أمور أخرى كما وقع مع عم النبي ﷺ أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فإنه لما أسلم إنما أسلم انتصاراً لابن أخيه من فرعون هذه الأُمَّة أبي جهل ثم لما ذاق طَعْمَ الإيمان كان منه ما كان، والمرء قد لا يعرف قيمة الإيمان في الابتداء فيأتيه على معنًى خارج الوعي والفهم لقيمته ثم يُصبح إليه أحبَّ إليه من نفسه وأهله والنَّاس أجمعين.

ثمَّ إنَّ المرء حين يرى الداعي لا يلتفت للدنيا الذي يبذلها له، بل يطلب منه الإيمان والإسلام يُدرك أنَّ وراء هذا الأمر شيءٌ عظيمٌ، لأنه يرى النَّاس يموتون ويذلون من أجل الهدايا والأموال، ثمَّ يرى نوعاً آخر مِن الخَلْقِ لا يلتفتون لذلك، بل يسألون شيئاً آخر، فيكون هذا على العموم سبباً لإسلامهم ومعرفتهم قيمة الإيمان، ولذلك جاء في الحديث: «**لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمْ**»[٣].

---

[1] لقد شرح الشيخ حفظه الله تعالى، وزادنا من علمه الغزير هذا الحديث في رسالة مستقلة بعنوان: شرح حديث: «**ما الفقر أخشى عليكم**» ورقة في البعث الحضاري وبيئته. فارجع إليها.

[2] عن أبي هريرةَ Z عنِ النبيِّ T قال: «**عَجِبَ اللهُ من قومٍ يدخُلونَ الجنَّةَ في السَّلاسل**». «البخاري»: ١٠٩٦/٣/ح٢٩٤٣.

[3] «البخاري»: ١٣٥٧/٣/ح٣٦١٩، ١٥٤٢/٤/ح٤١١٧. «مسلم»: ١٤٩/١٥/ح٦١٧٦.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أنَّ بعض مَن يقوم بالوظائف الدينية يقع في الكُفر الصريح وهو لا يدري، وذلك حين يأتيهم مَن يريد الإسلام فيُؤَجِلُونَهُ إلى وقتٍ آخرٍ، إما إعمالاً لقوانينِ الكُفر في بلادهم كما هو شأن بعض طوائف الردة في مصر وغيرها، إذ يزعمون أنَّ هذا يقع من أجل التحقق من صحة نواياه في دخوله في الإسلام وليس لمقاصد أُخرى، وإما يفعله البعض لانشغاله في أمرٍ مِن الأُمور، وتأجيل الكافر لحظة يعني أنه يقبل له الكُفر خلالها، وهذا كفرٌ لا شبهة فيه، بلِ الواجب حين يأتيك طالب الإسلام أن تُلقنه الشهادة لِلَحْظَتِهِ ثمَّ تُعلمه ما يلزمه من الشرع، أما التحقق من صحة نيته أو عدم التحقق فليس لك هذا الأمر، فقد يُسلم لدنيا ثم تأخذه رحمة الله تعالى، وأما إنْ عاد للكُفر بعد انقضاء مُراده فإنما عليه ما حُمِّلَ وعليك ما حُمِّلْتَ، وهؤلاء الجهلة الضالون لا يُؤجلونهم لِلَحَظَاتٍ بل بعضهم يُؤجلهم لأيامٍ، فما يُدريهم ـ لعنهم الله ـ أن يموت هؤلاء قبل نُطْقِهِم كلمة التوحيد فيموتون على الشرك والكفر ويُخلدون في جهنَّم.

في لفظ الحديث أنه كان مبلغ فعل الفتى هو الدعاء وذلك في قوله: «دَعَوْتُ اللهَ»، وهذا مع غيره يُبطل جهالات البعض بوجود اختصاصٍ عند بعضِ الخَلْقِ بوجود قُدرات وتأثيرات بدنية، ويُستثنى من هذا الأنبياء فإنَّ لأبدانهم فضلٌ على أبدان بقية الخَلق، إذ لا يجوز التبرك بأبدان أحدٍ مِن الخَلْقِ غيرهم، وما يُعْطَاهُ الصالحون مِن الكرامات إنما هو بدعائهم وتوسلهم، وما يقع مِن نَفْخٍ على المريض مِن قِبَلِ الراقي إنما هو لبركة القرآن والدعاء كما يقع في أذكار النَّوم كما في حديث أُمنا عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ فِي يَدَيْهِ، وَقَرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ»[1]. وفي رواية هي كذلك في الصحيح: «أنه كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ

[1] «البخاري»: ٥/٢٣٢٩/ح٦٣١٩. طرفاه ٥٠١٧، ٥٧٤٨.

فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ»[1].

ولذلك فإنَّ الخير كله في الدعاء وفي الذكر وفي القرآن، وهي خيرُ ما يُرْقَى به ويُدْفَعُ به الأمراض البدنية والنفسية والعقلية.

قوله: «**فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ**»: لفظٌ يحتاج إلى شرحٍ، فإن الإيمان بالله سهلٌ أن يُعْلَمَ معناه عند عدم وُجُودِ المُعرض، وذلك بأنْ يُوَحَّدَ الله تعالى في التألُّهِ والتعبُد كما هو حق ربوبيته على خلقه بالإيجاد والإمداد، لكن إنْ وُجِدَ المُعرض قبل الإسلام فإنَّ شرطَ الإيمان هو الكفر بهذا المُعارض، فإنَّ النصراني حين يُريد الدخول في الإسلام يكون شرط إسلامه الكفر بما عليه من الضلال، إذ يجب عليه الإقرار بأنَّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمته إلى مريم وروح منه، وأنَّ مريم أَمَّةٌ لله وأُمُّ عَبْدِ الله عيسى، وهكذا فإنَّ المرء إن أراد الإسلام يجب عليه الإقرار بالحقِّ والكفر بالباطل، وحال الكفر في وقت هذا الفتى لا يُعرف تفصيله إلاَّ بأمرين:-

أولاهما: السحر، وهو كفرٌ بالله تعالى لا يكون إلاَّ بعبادة الشياطين والخضوع لتألُهِهِمْ وطاعتهم، **وثانيهما**: قول المَلك له بعد ذلك: «**وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟**»، فإنَّ هذا الطاغية كان يُنكر رُبوبية الله تعالى كما هو شأن الطاغية الذي جادله إبراهيم الخليل عليه السلام. فإنه كان يُنكر أنَّ الله هو وحده المُحيي والمُميت، وهو وحده مَن يقوم على الكون بالمنع والعطاء، وهذا مِن جنس كُفْرِ فرعون، فإنه كان يُنكر ربوبية الله تعالى كما يُنكر تألُهَهُ.

ولذلك فإنَّ الفتى حين اشترط إيمانه بالله تعالى إنما اشترط كُفره بالمُعارض، أي السحر وربوبية غيره وتأهله.

---

[1] «البخاري»: ٤/١٩١٦/ح٥٠١٧. طرفاه ٥٧٤٨، ٦٣١٩.

مما هو معلوم أنَّ الرقية مِن المؤمن قد تنفع الكافر لما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ فَلُدِغَ سَيِّدُ ذلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِين نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لاَ يَنْفَعُهُ فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللهِ إِنِّي لأَرْقِي، وَلكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا فَقَالَ الَّذِي رَقَى لاَ تَفْعَلُوا، حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا فَقَدِمُوا عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**». ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**» فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[1].

فدلَّ أنَّ اشتراط الفتى على جليس المَلك وغيره الإيمان لِرُقيتهم إنما هو شرطٌ شرعيٌّ لا قَدريٌّ، وهو إرادته الدعوة كما تقدم، لا لأنَّ الرقية لا تنفع المرء حتى يُسلم.

كما تقدم أنَّ الداعي والمجاهد يُستحب له أن يقوم بشؤون النَّاس التي ترفع عنهمُ المظالم وتُعينهم على نوائِبِ الحقِّ، ولكن مما يُبَيِّنُه حال الفتى وقوله: «**فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ**» أنَّ من مُهمة الدُّعاة هو ربط انتهاء مصائبهم ومُعاناتهم بالإيمان وإتباع الأنبياء، وهذا بيِّنٌ في كتاب الله تعالى في

[1] «البخاري»: ١/٧٩٥/ح٢٢٤٢ .

مواطن، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥ـ ٦٦]. وقال تعالى في بيان سبب الإيمان في رفع البلاء: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ـ٤٣].

وهذا لا يُناقض وعد البلاء للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]، كما لا يُناقض قوله بعد آية: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا...﴾ [الأنعام: ٤٣] ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، فإنَّ الفارقَ أنَّ الظالم والكافر يُملي لهمُ الرحمن، ويُعطيهم تزيِّيناً وإغواءً حتى إذا أخذهم كان أخذهم شديداً، كما قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وكما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٩٥]، أما البلاء الذي يقع للمؤمنين فإنه عاقبته الصبر عليه هو اليُسر والأجر.

لكن مما يقع فيه بعض المُصلحين هو سعيهم لإصلاح النَّاس من خِلال برامج ونظام الجاهلية، وهذا مع استحالته لأنَّ الفساد في الأصل، فإنَّ العذرة والبول لا تصلح للتطهير أبداً، وبقاء قطعة الذهب في مجرى النجاسات لا يطهرها صبُّ الماء عليها، فهؤلاء إنما يريدون السمن من الماء وهذا لا يكون، وتجربتهم تدل على هذا، فإن كل جهودهم لإصلاح الفساد التي تحدثه الجاهلية تضيع هباءً وهواءً،

لأنَّ الشرك والكفر والجاهلية لا يصح إصلاحها إلاَّ باجتثاثها من جُذورها، وهذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونس: ٨١]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يس: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، وكل ما يعمله هؤلاء هو محاولة لتحسين وجه الجاهلية، وذلك بوجودهم في داخلها، وانْصِهَارِهِم في مُكوناتها حتى يكونوا جزءاً من نسيجها، والواجب هو ربط إصلاح العالم من خلال توحيد الله تعالى، وتحكيم شرعه وحده، والكفر بما دون ذلك من المناهج الشِركية الباطلة.

فمنهجُ الأنبياء هو منهجُ الفتى: تحقيق السعادة باعتزال الجاهلية والكفر بها، بل ومنهج النبي ﷺ هو مُقاتلتها حتى تُؤمن بالله وحده، وأما بعض مناهج المُعاصرين فهو السعي لتحقيق سعادة النَّاس في دُنياهم من خلال العمل داخل مِظلة الجاهلية، فما يعود مِن خيرٍ للنَّاس سيُنْسَبُ للجاهلية التي استوعبتْ هؤلاء المُصلحين، وما يقع مِن شرٍّ سيُنْسَبُ للمصلحين، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وهذه الجاهلية إنْ رأتْ أنَّ جهود هؤلاء المُصلحين ستعود عليها بالفساد قتلتِ المصلحين وحاربتهم، كما قال فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٢٦].

فالطريق السديد هو بيان أثر الإيمان على الأُمم والشعوب في تحقيق السعادة الحقيقة وتحذيرهم مِن ضَنَكِ العيش إن عصواْ الله وكفروا به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، وعدم التخلي عن شرط الإيمان بالله من خلال العمل بالشرائع الإسلامية تحت مظلة الكفر وقوامته، فإن

هذا شبه بالأعرابي الذي دخل المدينة فرأى الصنابر ـ جمع صنبور، وهو لفظ يعني فم القناة، وكذلك معب الحوض أو ثقبه يخرج منه الماء إذا غسل، ويُقال له في بعض البلاد بالحنفية وهو لفظ العامة ـ، فظن الأعرابي أنه لو ذهب بهذا الصنبور إلى داره لَشرب منها هو وأهله، ظاناً أنها مصدر الماء ومنبعه، فأخذها وألصقها بحيطان قريته، ولم يدرِ أنَّ وراء هذا الصنبور أمرٌ آخرٌ هو حقيقة أصل الماء ومنبعه، فهؤلاء الذين يريدون إنفاذ شرائع الإسلام أو بعضها في بُنيان الجاهلية ظانين أنها بغير إيمان النَّاس وتوحيدهم لربِّهم يتحقق لهمُ السعادة. هم واهمون، ولن يتحقق لهم ذلك، ولو تفكروا في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]. لَعَلِمُوا أنَّ دمار الجاهلية يأتي من أُسِّها وجذرها لا مِن فُرُوعِها فقط.

وبيان هذا من أجل التفريق بين عَمَلَيْنِ؛ عمل المجاهد في رفع الظُلم عنِ النَّاس خِلال مسيرته لتمكين دين الله في الأرض، وبين مَن بنى أساسَ إصلاحه لواقعِ النَّاس مِن خلال ترميم خَلَلِ الجاهلية ببعض شرائع الإسلام دون أن يُصادمِ جرثومتها وأصلها، فإنَّ الأول هو طريق الحقِّ والصالحين، والآخر ما هو إلاَّ وهْمُ قومٍ مُعاصرين.

«فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ. فَجِيءَ بِالْغُلَامِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً. إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ. فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ. فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ

دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ».

في هذا اللفظ أمورٌ وفوائدُ منها :ـ

لقد خرج جليس المَلك مِن بلاءِ العمى إلى بلاء الصبر على الهُدى، فإنه قَبْلَ إيمانه كان جل مقصده أن يعود له بصره، وقد بذل لذلك ما بذل، وفي نيته أن يبذل ما يُطلب منه، ولما جاءه الإيمان وعَلِمَ حلاوته وقِيمته هانت عليه نفسه وروحه كلها لا بصره فقط، ولذلك رضي الله أن يُنْشَرَ بالمِنشار إلى شِقَّيْنِ ولا يعود عن دينه، ولو نظرَ إليه صاحبَ كُفْرٍ وهَوىً لَقال: إنَّ الفتى جنى على هذا الجليس حيث رد إليه بصره بالدعاء، فأخرجه من بلاء العمى، لكن أوقعه في بلاء أشد ومحنة أعظم، وهذا يقوله أهل الضلال اليوم، وكذلك أهل الجهالة، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿**أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ [الأعراف: ١٢٩]، بل ربما كان البلاء بعد الهُدى أشد كما كان مع هذا الجليس الصالح، لكن ليس المِعيار هو البلاء، ولا رفع الأذى، إنّما المِعيار هو معرفة أي سبيل يكون فيه هذا البلاء وهذه المحن، فإنْ كان في سبيل الله تعالى كان بلاءً ممدوحاً محبوباً لأهل الإيمان، وأما إن كان لأهل الدنيا الذين لا يُؤمنون بالله والدار الآخرة، فإن هذا من العذاب في الدنيا، وهو الذي يسبق عذاب الآخرة.

من غير بصر ومعرفة لهذه الحقيقة يكون حُكم الآباء على أبنائهم، وكذا حُكم مشايخ الفتوى الضالين في رغبتهم في بقاء أبنائهم وأبناء المسلمين في عماية الجاهلية، وضلالة المعاصي ولا يلتحقون بالمجاهدين والدُّعاة المهديِّين حتى لا يُصيبهمُ البلاء الذي يلحق هذا النوع العظيم من البشر، فترى أحدهم يقول: «لو بقي هذا في ما كان فيه من الدنيا والمعصية أحب إلينا من أن يلحق بالمجاهدين،

فإنه لما لحق بهم آتاه ما آتاه من البلاء كالسجن أو العذاب أو ذهاب بعض جسمه أو ماله..»، لأنَّ ميزان هؤلاء هو ميزان الجُهال والضُلال، وأما ميزان الهُدى فإنَّ الفتى ردَّ إليه بصره بالدعاء، ووضع قلبه على طريق الإيمان، فدخل في سِلْكِ المُهتدين، وسِلكهم هذا هو أمره: أن يقع عليه البلاء، فذهب شهيداً لربِّه وهو منتهى فوز المرء في هذه الدنيا.

ميزان الجُهال والضُلال هو الحُكم بخسارة هذا الجليس، إذ رُدَّ إليه بصره فذهبت حياته، وميزان أهل الإيمان أن رُدَّ إليه بصره ودخل الجِنان.

فصرخات أهل الضلال للآباء: أن احبسوا أبناءكم عن سبيل الفِتيان، لأنَّ ما ينتظرهم إنما هو الألم والمُعاناة والمحن، فها أنتم ترون مصائر السائرين على درب الفِتيان؛ السجون والمعتقلات والذاهب من غير عودة، أو العائد مع بلاءٍ في بدنه وماله، يصرخون صرخات الشيطان: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. و﴿ **ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨] و﴿ **إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ** ﴾ [القصص: ٥٧].

وأما الفِتيان فقد ذاقوا حَلاوة الإيمان، وعرفوا عِزَّته ورِفْعَةَ معانيه، فهانتْ نفوسهم عليهم فهي عند أحدهم أَوْهَ مِن زِرِ قميصه الذي يلبسه، وأما قادتهم فإنهم مع عِلمهم بما سيلحق الفِتيان من قتلٍ وجرحٍ وسجنٍ وعذابٍ فهم يبكون حزناً على ذلك، لكنهم يعلمون أنَّ هذه هي سبيل العمل مع الله، وأنَّ هذه هي طريقة محمد ﷺ، فهو الذي لم يكد ينهم برؤية جعفر ابن عمه بعد غِياب السنين في الحبشة حتى أرسله إلى مُؤتة ليموت شهيداً، ثم يَبكيه، ويبكي على أبنائه حتى يضمهم إلى صدره رحمةً بهم ولِذِكْرَى أبيهم، إلاَّ أنه هو نبيُّ الهُدى والرحمة، ومِن رحمته أن يهدي للخلق أعظم الهَدايا وأكرمها وأنفسها وهي نعمة الشهادة التي يحبها الله تعالى، ومن أحب امرءاً فإنَّ الخير لهذا الحبيب أن يهدي له خير ما يعلم في هذا الوجود.

لقد أهدى الفتى لهذا الجليس أعظم الهدايا وأنفسها وأطيبها، فها قد مات أهل بلده جميعاً، ومات المَلك، ومات جنوده، فذهبتِ الدنيا عنِ الجميع، ولكن أين هذا الجليس اليوم؟ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، ولذلك كان مِن فِقْهِ الآباء أن يقولوا لأبنائهم في مواطن الجهاد: «تقدم حتى احتسبك عند الله تعالى»، فهذا فقه الآباء المُهتدين حيث يُعرِفُونَهُمْ طُرُقَ الوصول إلى الجِنان ورضى الرحمن.

أما أهل الضلال فهم الذين يُريدون لشبابنا أن يموتوا على سرر التخمة والراحة، هذا إن كانوا أهل إسلام، وإلاَّ فإنَّ شباب الغنى يموتون اليوم على موائد الخمر، وفي فعلات المعاصي والسهر، وأما شباب الفقر فيموتون في قوارب الموت سُعاراً كلبياً على الدنيا وملذاتها.

في هذا الخبر بيانُ حالةٍ مِن الحالات التي أخبر عنها النبي ﷺ في حديث خباب من صلابة الأقدمين في دينهم الحق، فقد قال خباب: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا. فَقَالَ: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[1]، هذا مع ما كان خَباب يرى ويقع له فعن الشعبي قال: «دَخَلَ خَبَّابُ بنُ الأَرَت على عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَأَجْلَسَهُ على مُتَّكَئِهِ فَقَالَ: مَا عَلى الأَرْضِ أَحَدٌ أَحَقُّ بهذا المِجْلِسِ مِنْ هذَا إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ، قَالَ لَهُ خَبَّابٌ: مَنْ هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: بِلاَلٌ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ خَبَّابٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُوَ بِأَحَق

[1] «البخاري»: ٢٥٤٦/٦/ح٦٩٤٣ . طرفاه ٣٦١٢، ٣٨٥٢ .

مِني، إنَّ بِلاَلاً كَانَ لَهُ فِي الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَمنَعُهُ اللهُ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِي أَحَدٌ يمنَعُنِي، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَاً أَخَذُونِي وَأَوْقَدُوا لِي نَارَاً ثُمَّ سَلَقُونِي فِيهَا ثُمَّ وَضَعَ رَجُلٌ رِجْلَهُ عَلى صَدْرِي، فَمَا اتَّقَيْتُ الأَرْضَ أَوْ قَالَ: بَرْدَ الأَرْضِ إِلاَّ بِظَهْرِي، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ ظَهْرِهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ بَرِصَ»[1].

ومع هذا الذي كان يُصيب أصحاب النبي ﷺ إلاَّ أنه ﷺ كان يُصبرهم بأخبار السابقين، حيث كان العذاب يُؤدي إلى مصيرٍ واحدٍ وهو الموت، ثمَّ يخبرهم أنَّ عاقبة صبرهم هذا إن لم يقعِ الموت عليهم العِزَّة والتمكين والنَّصر، فهذه هي عاقبة أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ، فقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ** ﴾ [التوبة: ٥]. يجب فهمها على وجهها، فإنَّ هاتين الحُسنيين لا يكونان إلاَّ بالصبر، فإما شهادةٌ ببلاءٍ، وإما نصرٌ ببلاءٍ، لا يكون أحدهما بالركون إلى الدنيا ولا بسلوك سبيل الدعة والراحة.

مِن البيِّنِ أنَّ الجليس لم يصبر على العذاب حين كان سببه الكشف عنِ الفتى، فقد عُذِّب حتى دلَّ عليه، ولكنه صبر عليه حين كان من أجل الارتداد عن الدين، هذا هو الظاهر من الحديث، وقد يكون هناك صورة أخرى في هذا اللفظ، وهو أنَّ عذابَ المَلك للجليس كان عذاباً لا يُريد منه قتله، وهو عذابٌ مُتواصلٌ، وهذا قد يضعف القوي فيه، بخلاف ما إذا هُدد بالقتل، فإنَّ القتل ليس ألمه كآلام العذاب التي تُوصل صاحبها إلى الموت ولا يُدركه، ولذلك كان من عذاب جهنَّم على الكافرين ما قاله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾** ﴾ [فاطر: ٣٦]، فأنْ تُوضع رقبة المرء تحت السيف، أو رأسه أمام المُسدس أو يقف أمام المشنقة كل ذلك أهون على نفس المُؤمن الذي يحب لقاء الله من آلام العذاب

[1] أخرجه ابن سعد في «طبقاته». وهو عند السيوطي في «جامع المسانيد والمراسيل» ١٣/٤١١/ح١٥٦٧.

المُتواصل التي يُريد صاحبها مِن المؤمن أمراً، فهو يُعذبه عذاباً لا يُوصله إلى الموت، وعذابٌ مُتواصِلٌ لا ينتهي، وهذا ربما هو ما جعل الجليس يعترف على الفتى.

ومما يشهد لهذا أنَّ الفتى اعترفَ على الراهب تحت العذاب، ولكنه في خاتمة الحديث هو الذي اختار الموت، فدل المَلك على وسيلة قتله، فالمرء يُقبل على الموت ولا يَهابه، ولكن للنَّاس قُدرات في تحمل عذاب المُجرمين.

تقدم أنَّ الجليس قَبِلَ الإيمان من أجل بصره، لكنه لما ذاق طعم الإيمان قَبِلَ أن تفوتَ روحه في سبيل هذا الإيمان، وهذا يُؤكد أنَّ الإيمان ومثله العلم قد يُطلب لغير الله تعالى، لكنَّ تذوقَ المرء له، ومعرفته بحقائقه تجعله أحب إليه من نفسه وأهله، ولذلك سئل الإمام أحمد عن سبب طلبه العلم هل هو لله؟ فقال: «هذا عزيز»، وكما قال بعضهم: «طلبنا العلم لغير الله فأبى الله إلاَّ أن يكون له»، وفهمُ هذا يُؤكد أهمية إقامة شرع الله في الأرض، فإنَّ أغلبَ النَّاس كما قال رسول الله ﷺ: «..**كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لاَ يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[1]، وعامتهم يُسَيِّرُه نظام القطيع، فوجود شرع الله وسلطانه الحاكم يمنع النَّاس من الفساد، ويجعلهم في إقبالٍ على الطاعات حتى لو كانت بسبب البيئة، ودون التفاتٍ للإخلاص ورغبة الدار الآخرة، ثم بهذا السبيل يتذوق النَّاس طعم الإيمان والطاعات والعلم والدين فيستقر في قلوبهم على المعنى الحسن من الاحتساب ورغبة الدار الآخرة، ومن غير شرع الله الحاكم فإنَّ سلطان الكفر يسوق هذا القطيع إلى المعاصي والشهوات، وهذا ما يشهد له التاريخ ويشهد له العصر، فإنَّ البيئة الإسلامية كانت تُنتج العلماء والعُباد والصالحين والمُجاهدين وذلك لما يتحقق لهم

[1] «مسلم»: ١٦/٨٦/ح٦٤٥١.

من بيئة تأخذهم إليها ابتداءً بلا فكرٍ ولا مقصدٍ، بل ربما تكون المقاصد غير بريئة ثم يكون منهم الخير العظيم.

إنَّ ضُعف الجليس والفتى عن تحملِ العذاب لا ينقص فضلهم، ولا يقدح هذا في شهادتهم التي حصلت لهم، فإنَّ من سعة رحمة الله أن يأتي للمؤمن أن يقول كلمة الكفر تحت الإكراه المُلجئ، وليس من الدين ولا من الهدي الرشيد أن يعيب أحدٌ على أحدٍ في هذا الباب، ولا ينبغي للمرء أن يتوقف عنِ الدعوة والجهاد لأنه يعلم من نفسه الضُعف عن تحمل العذاب، وتحمل العذاب ليس مما يشترط في جيل النَّصر، ولا من جيل الشهادة، فإن أصحاب النبي ﷺ وقع منهم إرضاء الكافرين بكلمات قالوها وراء قلوبهم تحت العذاب من أجل كفه عنهم، وهم أئمة الهُدى والدين والفضل، ومما يمارسه الطواغيت وآلاتهم الإعلامية، ويُشاركهم في ذلك بعض الجهلة هو القدح والاستهزاء بأهل الإيمان حين يقع منهم ما وقع للجليس والفتى من الاعتراف تحت العذاب، ويتخذون هذه وسيلة للقدح في إمامتهم وقوة صبرهم، وكل هذا كذبٌ وانحرافٌ، وموافقة الطواغيت وأزلامهم في هذا الاستهزاء والقدح دخول في سبيل المجرمين، هذا مع أنَّ هؤلاء لا يصبرون على ذهاب الشهوات من أجل دين الله تعالى، فكيف يحق لهمُ القول في الذين هجروا الدنيا ونعيمها من أجل دين الله تعالى.

إنَّ على الداعي والمجاهد أن لا يضعف أمام تعيِّير أهل الجهل والضلالة، فلا عيب إلاَّ المعاصي، ولا عار إلاَّ الكفر بالله وتوابعه، حيث رفع العتب من الله فإنَّ المرء المؤمن لا يضره ما يُقال عنه بعد ذلك، ثم على المؤمن إن وقع منه ذلك أنْ لا يشعر بالمهانة والضعف فيستكين للشيطان وجُنده، فقد يُعذب بأمورٍ على معنى تحطيم نفسه وعِزته، فعليه بهذا أن يزداد تصميماً على الحقِّ والثبات عليه، فها هو إبراهيم الخليل عليه السلام وهو إمام النقاء تُؤخذ منه زوجته للطاغية فلا يقدر أن يدفع عنها، وإنما يطلب منها أن تخبر أنها أخته حتى لا يقتله إنْ عَلِمَ أنه

زوجها، ويكل أمرها إلى الله تعالى ففي الحديث: «وبينما هو يسير ـ أي الخليل إبراهيم ـ في أرض جبَّار من الجبابرة إذ نزل منزلاً، فأتى الجبَّارَ رجلٌ فقال: «إنَّه قد نزل ها هنا في أرضِكَ رجلٌ معه امرأةٌ مِن أَحْسَنِ النَّاس»، فأرسل إليه فقال: «ما هذه المرأة منك؟». قال: «هي أُختي»، قال: «اذهب فأرسل لها»، قال: «فانطلقَ إلى سارة». فقال لها: «إنَّ هذا الجبَّار سألني عنك، فأخبرته أنَّك أُختي فلا تكذبيني عنده، فإنَّكِ أُختي في كتاب الله عزَّ وجلَّ وإنَّه ليس في الأرض مسلمٌ غيري وغيرك»، فانطلق بها وقام إبراهيمُ يُصلي...»[1] الحديث.

وفي يومنا هذه صارت هذه وسيلة لأعداء الله المجرمين، يتخذونها من أجل إسقاط النَّاس في تبعيتهم ودينهم، أو في سبيل صرف النَّاس عن إمامة من يُهِينُونَه، ومما يُؤسف له أنَّ النَّاس أغلبهم قد عميت بصيرتهم، فهم يسقطون في هذا السبيل، بل ويسقط فيه بعض المشايخ والدُّعاة، فيُعينوا الشيطان وجنوده على هذا المُبتلى، وفقه هذا المبتلى وعلمه بدين الله واهتمامه بالدار الآخرة يجعل كل ذلك دُبْرَ أُذنيه، ولا يضره ما يُقال عنه من قذارات هذا الزمن، ولا ما يُبث عنه من صور وحكايات يقصد منها الطعن فيه وفي دينه وفي عِرضه، فإنْ ضَعُفَ واستكانَ وتراجع كان قد أَوْبَقَ نفسه في شرك الباطل وحقق مُراده منه.

نعم هذا شاقٌ على النفوس، لكن نحن في زمانٍ لا يُقام لأكثر مما يُقال فيه أي اعتبار، فإنه زمنٌ يقلب الفضائل إلى رذائل، والحسنات إلى سيئات، فلو أنه لم يقع منه إلاَّ القوة والخير والأمانة فإنه لن يخلو من شر يتهم به ويلصق بجنابه، فليمضِ إلى الله وإلى الدار الآخرة، ولِيتذكر حديث الطفل الذي نطق في المهد

[1] «سنن النسائي الكُبرى»: ٥/٩٨/ح٨٢٧٥.

حين مرت به وبأمه امرأة يصرخ بها أنها زانية، وتضرب فقالت الأم: «اللَّهُمَّ! لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا»، فقال الطفل: «اللهم اجعلني مثلها». لما يعلم أنها مظلومة[1].

فهذا زمانٌ يُقال فيه عن أخبث النَّاس وأبخس النَّاس وأجبن النَّاس: ما أفضله، وما أجمله، وما أحسنَ معيشته، وهو لا يعدل عند الله جناح بعوضة.

أراد المَلك مِن الفتى أن ينسب ما يحصل من كرامات إلهية إلى السحر، وهو أحد أدواته في تعبُّد قومه له، فرد عليه الفتى أنَّ هذا فضل الله، لا مِن فِعْلِ الساحر، وغضبُ المَلك إنما مرده كراهية أن يُنسب الفضل لأهله، وهو يعلم أنَّ معنى نسبة الفضل لله هو الخروج عن سُلطانه وتألُّهه، وفي هذا سقوط بُنيانه الذي يبنيه، وأما السحر فمع أنه فعلُ ساحرٍ إلاَّ أنه داخل سلطانه ومملكته، بل هو أحد أركان مُلكه وتألهه وإنْ كان مصدره من غيره، وهذا شأن الجاهلية والطواغيت، فإنهم يكرهون نسبة ما يقع لهم إلى حِكمةٍ إلهيةٍ ربَّانيَّةٍ، ويرضون أن تُنسب لأيِّ أحدٍ، لأنهم يعلمون أنَّ نسبة الفضل لله هو القَضاء على سلطانهم ومُلكهم، فهذا يعني أنَّ ألوهية الله تُصادم ملك الكفر والجاهلية وهي حربٌ عليه، ولا يلتقيان إلاَّ في مجال المُدافعة حيث وجود الواحد يعني إلغاء الآخر، ولكنهم يقبلون أي تصرفٍ أو نسبةٍ لغير الله ضمن سلطانهم ومُلكهم وتألههم، بل يرون كل ذلك مِن مَحْمَدِ وُجودهم واستمرار مُلكهم، وبهذا فإنَّ طرح قضايا الحياة على أساسٍ دينيٍّ لا يقبله طواغيت العصر، ويرضون تسمية الخلاف بين المُتعارضين خلافاً في الرأي، أو خلافاً بين سياسات ومناهج فكرية، لأنَّ هذا الخلاف مقبولٌ ضمن مربع الجاهلية وسلطانها، أما نقل المُنازعة على أساس حقِّ الله تعالى، وهي التي تجعل الفُرقاء بين مؤمنٍ وكافرٍ، وبين موحِّدٍ ومُشركٍ فإنها غير مقبولة من الجاهلية وأركانها، لأنَّ الخلاف يُصبح على مظلة الحُكم القاهر،

[1] انظر الحديث كاملاً في «البخاري»: ١٢٦٨/٣/ح٣٣٦٤-١٢٧٩. «مسلم»: ٩٠/١٦/ح٦٤٦١.

أي من هو الذي يملك السلطان، وفي هذا تنازع لن ينتهي إلاَّ بوجود واحدٍ، لأنَّ هذا منصبٌ لا يتسع إلاَّ لواحدٍ، وأما مكونات المحكوم فهي متعددة، فالإسلام نفسه يسمح بوجود الكفار والمُشركين في سلطانه، كما أنَّ الجاهلية تسمح بوجود الإسلام في سلطانها، وفي هذا بيان حقيقة المُنازعة، والذين رضخوا من المسلمين واستجابوا لنداء الجاهلية وشُروطها، أي أنهم تخلواْ عن تسمية المُنازعة دينية، وعن المُنازعة في السلطان الحاكم إنما وقع منهم هذا بسبب جهلهم، ومن رضي بهذا وهو يعلم إنما فعل ذلك هروباً من تكاليف المُواجهة، فإنْ سُئِلَ كما سُئِلَ الفتى: ما أحسن ما تفعل وتقول! فها أنتَ قد قضيتَ على بعض الفساد، وكنتَ أميناً إذ تعرفتَ في ما وليت، كان جوابهم: هذا من محاسن سحركم وديمقراطيتكم إذ سمحتم لنا بالوجود.

أما المؤمن فيقول: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]. ولقال ما قال الفتى: إني لا أقول شيئاً مِن قِبَلِ رأيي، بل هو حُكم الله تعالى، وما يُضاده هو الكفر والشرك.

لقد سأل الملك الجليس: «مَنْ رَدَّ إِلَيْكَ بَصَرُكَ؟»، فهو يعلم أنه ليس رباً يرد للنَّاس أبصارهم، وقد قبل الملك أن يَردّ عليه أي جواب إلاَّ أن ينسب هذا الرد إلى أمرٍ تعبديٍّ، فغضب هو وشيطانه إذ قيل له: «ربي»، فالخلاف والتعدد داخل الجاهلية مقبولٌ إذا كان الجميع قد تواضعوا على قبول دستورٍ كفريٍّ ودينٍ من عند أنفسهم، وأما النكارة والغضب والقتل والسجن لمن جعل ما يقوله ويفعله هو دين الله تعالى وهو حُكمه، ثم يجعل الخلاف على قاعدة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩].

إنَّ الصارخين دائماً إنَّ خلافنا مع الآخرين ليس دينياً هم أبعد النَّاس عن سبيل الهدى، وإنَّ الذين يُنازعون الجاهلية حتى في بعض مسائلها وبعض مظالمها في

الأرض حين يُرجعون ذلك كله إلى قاعدة الإيمان هم أتباع الأنبياء وهم وُراث هديهم وحملة مناهجهم.

«ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا. فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ».

إنَّ أول ما يتبادر إلى ذهن الناظر في هذا الحديث الشريف هو السؤال: لماذا لم يقضِ الملك على الفتى ما قضاه على الجليس والراهب، بل فعل به ما جرى من إرساله للجبل والبحر؟. والجواب:-

هذه مقادير الله تعالى، حيث إرادة الله بأن تجري الأمور إلى مُستقرها الذي أرادها الله لها، وهذه المقادير التي فيها إزالة للكفر ورفعة الإيمان يجريها الله على معنى الكيد بالطُغاة والعُتاة والمجرمين، فإنَّ فرعون سقط في رغبة ما أملته له زوجته بقولها عن موسى عليه السلام وهو رضيع: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا**﴾ [القصص: ٩]، فسكوت فرعون مما يدل أنها وقعت في نفسه، فمالَ إلى حِفظه لميله إلى نفعه واتخاذه عقباً وولداً له، فجرى له بهذا الكيد ما جرى من ذهاب مُلكه على يد هذا الرضيع بعدما شبَّ وصار نبياً، والأمر كذلك هنا، فإنَّ المَلك أمّل أن يبقى الفتى على المعنى الذي يُريده، أي سلوكه سبيل السحر والدخول في طاعته، فسيق إلى حتفه بهذه الرغبة، ولذلك أرسله إلى الجبل وقال لجنوده: «**فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،**

وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ»، وهكذا تجري أقدار الله في إزالة الكفر من خلال رغباتهم بأنْ تجري الأُمور إلى ما يحبون، فيجمعون نياتهم على أمرٍ هو أملهم، وفي هذا الأمل يحيى الخير وينمو، ثم يأتيهم كيد الله من حيث لم يحتسبوا.

إن المَلك يريد قتله غضباً عليه، ويريد إبقاءه رغبة به بأن يكون له عبداً وخادماً وساحراً، فتتدافع الإرادتان ومن خلالهما تسلك إرادة الله إلى مُستقرها في هلاكه ودماره، ومن جهالات أهل العصر وما يُسمونه التحليل السياسي أنَّ وقوع هذا النوع من المكر الإلهي يفسرونه على معاني باطلة، كقول بعضهم في سبِّ الحقِّ أنه من صناعة الكفر، فهو خيطٌ من نسيجه، أو أنه تابعٌ له عميلٌ لخططه، وهي تحليلات ضلالة يُراد منها التنفير، وقدح الحق، ومما يُؤسف له أنَّ بعض الجهلة من المسلمين يُسمَّوْن بالمفكرين تنطلي عليهم هذه الحيلة، وكل ذلك لأنهم لا يعرفون سنة الله في الكيد والمكر، إذ ينشأ الحق ويترعرع تحت رغبة الباطل في أن يستغله، مع رغبته بإزالته لأنه يكرهه، وهذا كله لقاعدة التدافع السننية، إذ أن الحق لا ينشأ في خلاءٍ تامٍ، بل هو محكوم بالسنن القَدرية، ومَن تفكر في سيرة الرسول ﷺ وَجَدَ هذا جلِياً، لكن لما دخلت طُرق الباطل في تفسير التاريخ والأحداث، وخاصة بعد أن قدمت دراسات استشراقية لسير الرسل، وبدأ تفسيرها على معنى الباطل والجهل اضطردت معالم هذه الدراسات حتى دخلت على واقع تفسير أحداث الإيمان المُعاصرة، وخطورة هذا الأمر على الدُّعاة والهُداة والمُجاهدين هو وُقوعهم في شرك هذه التحليلات إذ يُصبح في أذهانهم عند دراسة موقفٍ ما، أو عند رُؤيتهم عملاً من أعمال الصلاح التي تحقق الخير للإسلام وأهله أن يتركوه ويعرضوا عنه مخافة اتهامهم بالعَمالة والتبعية، ومن استجاب لهذه التخوفات فاته خير كبير، وتعطلت بسببه مصالح دين الله.

ولكن يجب تحصين الجبهة الداخلية من عموم المجاهدين حتى لا يقعوا في سبيل الجاهلية، فينقلبون على قادتهم ودعاتهم استجابة لهذه التهم الفاجرة الكافرة.

وكما أنَّ التدافع نشأ في نفس المَلك بين رغبتين، كذلك ينشأ التدافع بين قوتين وبين نظامين، فقد كانت خُزاعة عيبة رسول الله ﷺ مُسلمهم وكافرهم، وقد دخل رسول الله ﷺ في جِوار عدي بن مطعم لما رجع من الطائف بعد أن رده أهلها أقبح رد، فالداعي والمجاهد عليه أن يستعين بكل ما يُيسره الله من قوى لتحقيق تمكين الله في الأرض، ومن أجل حماية الداعي والدعوة، وكل ذلك له ضوابط شرعية معروفة في كتب الفقه، فهذا كله من نِعَمِ الله تعالى في الوجود بعدم إطباق النَّاس على حالٍ واحدةٍ وقوةٍ واحدةٍ، وإلاَّ لما كان للحقِّ أن يعمل عمله من خلال السننِ الكونية، ولَصار النَّاس إلى مذاهب الباطل من انتظار النَّصر على وجهٍ وهميٍّ خياليٍّ لا وجود له في هذه الأرض، والعمل على تجميع القوة في نُصرة الدين يُنسب فضله للمجاهدين والدُّعاة، فهم يفعلون ذلك لحكمتهم وهِداية الله لهم بأنْ يكونوا هم من يأخذ الآخرين إلى مُراده، بخلاف منهج التحالفات الباطلة التي سلكتها عموم الجماعات الإسلامية المُعاصرة، فإنهم كانوا دوماً مطيةً للآخرين، يسوقهم إلى أهدافه من خلال إعطائهم بعض الأمل بأن يحقق لهم شيئاً إن دخلوا في نُصرته، وقصة التحالفات قصة طويلة تحتاج بنفسها إلى مصنفٍ خاصٍ، لأنها هي أعظم الشرور التي وقعت فيها جماعات الإسلام، وما مِن طاغوتٍ وشِرِيرٍ إلاَّ وقد امتطاهم إلى أهدافه، وحقق أهدافه على ظهورهم، ثم بعد أن انتهت مهمتهم عاد عليهم بالقتل والسجن والعذاب، فلقوا منه ما يُقال له في المثل: «جَزَاءَ سِنِمَّارٍ»[1]، وهذه ما زالت تتكرر

---

[1] **جَزَاءَ سِنِمَّارٍ**: أي جَزَاني جزاءَ سنمار، وهو رجلٌ روميٌّ بَنَى الخَوَرْنَقَ الذي بظَهْر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتاً، وإنما فعل ذلك لئلاَ يبني مثلَه لغيره، فضربت العرب به المثلَ لمن يجزي بالإحسان الإساءة، قال الشاعر:

جَزَتْنَا بنو سَعْد بحُسْــن فَعَالِنَا   جَزَاء سِنِمَّارٍ وما كانَ ذَا ذَنْب

إلى يومنا هذا، لا يكاد أهل الإسلام أن يبصروا جرمها وإثمها ونتائجها، وسبب هذا هو قبولهم بالدخول في لُعبة الآخر، ورِضاهم بأن يكونوا تحت اسمه وأهدافه، وجعلهم أهداف الإسلام تابعة لا أصلية، وهذا خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ، فإن كل ما يفعله ﷺ في هذا الباب هو أن يبقى الإسلام نقياً من التبعية، سليماً من شُبهة الاختلاط مع غيره، سواء كان في ما يدعو إليه أو ما يسلكه من وسائل، فما كان يتحقق من منافع كانت تجنى إلى قوة الإسلام لا إلى قوة غيره، وكانت تعود على المسلمين لا على غيرهم، ولذلك فإنَّ كل ما قِيلَ من جَواز التحالفات من السيرة النبويَّة إنما هو إفسادٌ وتضليلٌ، ذلك بأنه لا يمكن لعملٍ شرعي قد سلكه رسول الله ﷺ يُؤدي إلى هذه النتائج الكارثية التي آلتْ إليها تحالفات هؤلاء القوم في هذا العصر، ومَن تأملَ طُرق الاستدلال المُتبعة في هذه المسائل عَلِمَ أي فساد في هذه المناهج الفقهية التي تسلكها هذه الجماعات لتبرير أعمالها وأهوائها.

ثمَّ إنَّ اختلاف القَدر بين الراهب والجليس وبين الغلام إنما يدل على أنَّ قدر الداعي والمجاهد يسير إلى ما يحبَانِهِ مِن هداية الخَلق ونُصرة الدين، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يجري للنَّاس في هذه الأرض بحسب نِيَّاتهم ومَسالكهم في كثيرٍ من الأحداث، فإنَّ الفتى قد ظهر من بداية أمره أنه سلك غير مسلك الراهب، وكان في مسلكه وعمله جلب الخير للراهب الذي هربَ منه، وقد حصلت له الشهادة، ثم كان من أمره حيث ملك قوة الكرامة والتي أحبَّ المَلك أن تُصبح له لا عليه، والتي جعلها سبيلاً لهداية الخَلق أنْ ساق الله له مِن الأقدار التي حققت له المُراد من دخول النَّاس في دين الله تعالى، وكل ذلك من خلال السُّنن القَدرية، فالمَلك

ويقال: هو الذي بنى أطمَ أحَيْحَةَ ابن الجُلاَح، فلما فرغ منه قال له أُحَيْحَة: لقد أحكمتَه، قال: إني لأعرفُ فيه حجراً لو نُزع لتقوَّضَ من عند آخره، فسأله عن الحجر، فأراه موضعه. فدفعه أحيحة من الأطم فخرَّ ميتاً. «معجم الحِكم والأمثال» لأبي الفضل الميداني. مثل: ٦٢٨.

كما تقدم هان عليه أن يُفرط في هذه القوة التي يملكها الفتى، فساومها بالرهبة حتى تعود إلى عبوديته وطاعته، وهذا شأن الداعي والمجاهد، إذ يُصبح حاله مشكلة على الجاهلية مِن كلِّ جهةٍ، فإنها إنْ تركته كان شراً عليها، وإنْ قتلته كان شراً عليها كذلك، فلذلك هي تسلكُ معه سبيل المُساومة بالرغبة والرهبة، وذلك خلاف العابد المُختلي لنفسه وبنفسه، فهي تُسارع إلى قتله والانتهاء منه، لأنها لا تخاف عواقب ذلك، ولذلك فإنَّ الداعي والمجاهد هما كالسيف في بطن الجاهلية، إنْ تركته نحرها مِن الداخل، وإنْ أخرجته نحرها مِن الخارج، فاختيار المرء سبيل المُواجهة بالدعوة والصَّدع بالحقِّ، وبالجهاد ومُقابلة الأعداء هو مصدر قوةٍ للمسلم، كما أنه سبب رِفعته في الدنيا والآخرة، وقد تبيَّن أنَّ انسحاب الراهب مِن المُواجهة لم يذهب عند قَدره، بل جاءه وحصل له الفضل به، ولم يفترق قَدره عن قَدر الغُلام في الشهادة إلاَّ أنَّ شهادة الفتى كانت على قَدَرٍ أعظم وهو هداية أهل البلد.

ومما يشهد أنَّ قدر الداعي والمجاهد خيرٌ مِن قدر العابد في تحقيق الخير للخَلق ما رواه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصة بئر معونة: لما طُعنَ حَرامُ بن ملحانَ ـ وكان خالهُ ـ يومَ بئر مَعونةَ، قال بالدَّم هكذا، فنضَحهُ على وجهه ورأسِهِ ثمَّ قال: «فُزتُ وربِّ الكعبة» وهذه رواية البخاري[1]، وعند الواقدي أنَّ الذي قتله جبار بن سلمى الكلابى. قال: ولما طعنه بالرمح قال: «فُزْتُ وربِّ الكعبة»، ثم سأل جبار بعد ذلك ما معنى قوله: «فُزْتُ» قالوا: «يعني بالجَنَّة»، فقال: «صدق والله، ثم أسلم جبار بعد ذلك لذلك» كما في «البداية»[2] لابن كثير، والواقدي إمامٌ أخل الأخبار وفيه مقال.

---

[1] «البخاري»: ٤/١٥٠٢/ح٤٠٠٣.

[2] «البداية والنهاية»: ٤/٧١.

فهذا الحديث لو تأمل به السالكون إلى رضوان الله، والراغبون إلى أعلى الدرجات في الجِنان لرأواْ فيه أنَّ أعظم ما يحقق لهم ذلك هو حمل كلمة الله إلى الخَلق، والصدع بها، وحمل السلاح ومُواجهة الباطل، ولا يكون هذا إلاَّ بأنْ تهُونَ نفس المرء عليه حتى هي أرخص ما يبذله في سبيل الله تعالى.

لقد سأل الفتى ربَّه بدعاء الصالحين والأنبياء وهو قوله: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ**»، وهو عين دعاء النبي ﷺ في الهجرة لما لحقه سُراقة بن مالك فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ مِنْ عَازِبٍ سَرْجاً بِثَلاثَةَ عَشَرَ دِرْهَماً، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعَازِبٍ: مُرِ الْبَرَاءَ فَلْيَحْمِلْهُ إِلى مَنْزِلِي، فَقَالَ: لا، حَتَّى تُحَدثَنَا كَيفَ صَنَعْتَ حِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنْتَ مَعَهُ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «خَرَجْنَا فَأَدْلَجْنَا فَأَحْثَثْنَا - أي أسرعنا - يَوْمَنَا وَلَيْلَتَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ - أي اشتد الحر - فَضَرَبْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى ظِلاًّ نَأْوِي إِلَيْهِ، فَإِذَا أَنَا بِصَخْرَةٍ فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا بَقِيَّةُ ظِلهَا فَسَوَّيْتُهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَفَرَشْتُ لَهُ فَرْوَةً، وَقُلْتُ: اضْطَجِعْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَاضْطَجَعَ، ثُمَّ خَرَجْتُ أَنْظُرُ هَلْ أَرَى أَحَداً مِنَ الطَلَبِ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ، فَقُلْتُ: فَهَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: هَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْهَا، ثُمَّ أَمَرْتُهُ فَنَفَضَ ضَرْعَهَا مِنَ الغُبَارِ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ فَنَفَضَ كَفَّيْهِ مِنَ الْغُبَارِ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ عَلى فَمِهَا خِرْقَةٌ، فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً - أي القليل منه - مِنَ اللَّبَنِ، فَصَبَبْتُ - يَعْني المَاءَ - عَلى الْقَدَحِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَوَافَيْتُهُ وَقَد اسْتَيْقَظَ، فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قُلتُ: هَلْ أَتى الرَّحِيلُ؟ فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَنَا، فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ سُرَاقَةُ بن مالكٍ بن جَعْشَمٍ عَلى فَرَسٍ لَهُ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا، فَقَالَ: «**لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»، حَتَّى إِذَا دَنا مِنَّا فَكَانَ بَينَنَا وَبَيْنَهُ قَدَرُ رُمْحٍ أَوْ رُمْحَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، قَالَ قُلتُ: يا

رَسُولَ اللهِ، هذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا، وَبَكَيْتُ، قَالَ: «**لِمَ تَبْكِي؟**» قَالَ قُلْتُ: أَمَا واللهِ مَا عَلى نَفْسِي أَبْكِي، وَلكِنِي أَبْكِي عَلَيْكَ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَكْفِنَاهُ بِمَا شِئْتَ**»، فَساخَتْ قَوائِمُ فَرَسِهِ إِلَى بَطْنِهَا فِي أَرْضٍ صَلْدٍ ـ أي صلب أملس ـ، وَوَثَبَ عَنْهَا، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ هذَا عَمَلُكَ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يُنْجِيَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ، فَوَاللهِ لأُعَمِّيَنَّ عَلى مَنْ وَرَائِي مِنَ الطَّلَبِ، وَهذِهِ كِنَانَتِي فَخُذْ مِنْهَا سَهْماً فَإِنَّكَ سَتَمُرُّ بِإِبلِي وَغَنَمِي فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا فَخُذْ مِنْهَا حَاجَتَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ حَاجَةَ لِي فيهَا**»، وَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأُطْلِقَ وَرَجَعَ إِلى أَصْحَابِهِ، وَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا المدِينَةَ، فَتَلَقَّاهُ النَّاسُ فَخَرَجُوا فِي الطُّرِيقِ وَعَلى الأَجَاجِيرِ ـ أي سطوح المنازل ـ فَاشْتَدَّ الْخَدَمُ وَالصبْيَانُ في الطَّرِيقِ يَقُولُونَ: اللهُ أَكْبَرُ، جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، جَاءَ مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَتَنَازَعَ الْقَوْمُ أَيُّهُمْ يَنْزِلُ عَليهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنْزِلُ اللَّيْلَةَ عَلى بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لأَكْرِمَهُمْ بِذلِكَ**»، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا حَيْثُ أُمِرَ»[1].

وهذا الدعاء فيه الثقة بالله، فإنَّ المرء حين يقترب مِن السقوط بين يدي أعدائه تكون النفس في أشدِّ حالاتها هيجاناً وتوتراً، حينها تخرج الكلمات من الصدور على وجه الحقيقة التي لا تشتبك بأيِّ دخيلٍ، لأنَّ النفوس تكون عاريةً دون خِداعٍ، فالذين يلقون بهذه الكلمات: «**اللهم اكفنيهم بما شئت**» إنما يلقون أثقالهم على ما تتوكل عليه قلوبهم حقيقة، وهو الله تعالى، وهم يثقون بأن إرادة الله خيرٌ من إرادتهم، وأنَّ ما يُريده الله لهم خيرٌ مما يحبون لأنفسهم، ولذلك قالوا: «**بما شئت**»، فليتعلمِ السالكون هذا الدعاء، وليتخذوه في جُعبتهم سلاحاً حين الغَمرات والمَلمات، فإنه خير ما ينمُّون، وخير ما يدخرون.

[1] «مُسند أحمد»: ١/ ٥.

وإجابة الدعاء عند المصائب لا يكون إلاَّ بأنْ يكون المرء عابداً مخبتاً في اليسر، كما قال الله عن زكريا: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٨٩-٩٠].

فعلى المرء أن يعرف ربَّه في الرخاء ليعرفه في الشدة، فأما غفلة المرء وقت السعة وإقباله على الله في الشدة فقد عابها الله تعالى وجعلها من سِمات الضعف فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: ٥١].

لقد رجعَ الفتى يمشي إلى المَلك، وهذا اختيارُ المقربين، وهو اختيار الدُّعاة والمجاهدين، فإنَّ موسى عليه السلام قال عن خروجه إلى مدين: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء: ٢١]. ثمَّ لما حمل الدعوة والرسالة بوجوب إخراج بني إسرائيل عاد إلى فرعون وواجهه، فإنَّ الغلام كان بوُسْعِهِ أن يذهب في الأرض كما اختفى الراهب من قبل، لكنه أراد أمراً آخر، وهو الوصول إلى المُستقر الذي أحبه لنفسه، وهو الشهادة على وجه تحقق الهداية للخَلق، وهذه مرتبة المُقربين، وهي ما يحبه الله تعالى من عبيده ففي الحديث: «**مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ. كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ. يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ**»[1]. فطلبُ مظان القتل أو الموت سِمَّةٌ لأهل هذا الدين، والهروب مِن الموت سِمَّة الكَفرة والمُشركين وأهل النفاق، كما قال تعالى على لسان المنافقين: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، ولذلك هم: ﴿ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦].

[1] «مسلم»: ١٣/٣١/ح٤٨٤٥ .

وإنَّ من جهالات البعض، وعدم نظرهم الإيماني بما يقع لهم من المصائب أن يرتدعوا عنِ الطاعات التي فيها المُواجهة بعد أن منَّ الله عليهم بالنَّجاة من مَلمات وغمرات سابقة، فترى أقواماً كان لهم بلاءٌ في دين الله تعالى، فأُخذوا في البلاء والأذى كما هو قدر العالمين والسالكين، فحصلت لهم طاعات من عبادة ودعاء واستغاثة، كما حصل أن صار لهم إمامة في الخَلق بهذا السبيل، ثمَّ لما منَّ الله عليهم بالنِّجاة واستجابة الدعاء نكصوا وغيَّروا وبدَّلوا، وكأنهم حلفوا بينهم وبين أنفسهم ألا يُعيدوا كرة الجهاد أو البلاغ، فما أشقى هؤلاء!، وما أفسد عقولهم وأضعف قلوبهم! فإنَّ السبيل الإيماني في هذا الباب وقد رأيتَ نُصرة الله لك بالنَّجاة مِن الأُولى، وعلمتَ رعاية الله لك حين تسير على درب الإيمان أن تُعيد الكرة مرةً بعد مرةٍ حتى تُدرك الشهادة، ذلك بأنَّ المؤمن يفرح للمَلمات لأنها فُرصته في القُرْبِ من الله، وفُرصته في تحصيل الإمامة، وفرحته في إثبات صِدق ما يدعو النَّاس إليه، وهي فُرصته لنَيْلِ الشهادة كذلك، فهو لا يهرب منها، بل يجري إليها، لكن هؤلاء نكصوا حيث صار مثلهم مثل الكلاب التي إذا زُجِرَتْ بالحجر انزجرتْ، أو إذا قعقع لها بالشنان طار فُؤادها فهي هواء، ولذلك تراهم قد ذهبت إمامتهم وانصرفت قلوب النَّاس عنهم، والعجب أنَّ بعضهم قال: «ماذا نفعتني قلوب النَّاس لما كنتُ في البلاء؟!». يقولها على وجه الاحتقار لهذه القلوب التي أحبته ودعت لها وجعلته إماماً من أئمة الدين، ولذلك مال إلى أن يكون إماماً عند الطواغيت، يُقرب إليهم، وبدل أن يكون إماماً للهُدى صار يصنع على وجه صناعة أهل النخاسة في وسائل الإعلام.

إنَّ قاعدة الإيمان هي قاعدة بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقولها تحت العذاب والحجر والشمس الحارقة والسياط المجرمة «والله لو أعلم كلمة تغضبكم غير هذه الكلمة لقلتها» وهو يردد: أحد، أحد.

يُقال لهؤلاء الذين انزجروا من أول الطريق، ونكصوا على أعقابهم وهم على أعتاب الدرب: لقد كنتم قابَ قوسين أو أدنى من الإمامة ووُلُوجِ باب الشهادة والتاريخ، ولو قُلتم ما قاله سيد قطب رحمه الله تعالى: «إنَّ أُصبعي السبابة التي تشهد لله بالوحدانيَّة، تأبى أن تُقِر حُكْماً لطاغية»، لَنِلْتُمْ ما نالَ، ولَصارتْ كلماتكم معالم هُدى للسائرين، ولانتظمتم أسماؤكم في سلك الأولياء والصالحين، لكن كان معدنكم غير صافٍ، ولعلَّكم رضيتم الانتساب للخزف لا للدر، فإنَّ النَّاس معادن كمعادن الذهب والفضة.

عودوا كما عاد الفتى، فهو درب السماء والشهادة، فمنِ العار أن يكون أهل الباطل أشد صلابة في باطلهم من صلابتكم في الحق الذي رواه الآباء والأجداد بعرقهم ودمائهم، واعلموا أنَّ محبة الفِتيان لكم خيرٌ لكم من نجومية كاذبة يلجها كل نطيحة ومُتردية، فشتان أن يرضى عنكم أهل الدنيا ويمدحون صوركم وكلامكم، وبين أن يحبكم أهل جبهات الجهاد وأربطة النِزال، فإنَّ دعاء فتى من فِتيان الجهاد خيرٌ من مِلْءِ الأرض من ذهبها وزُخرفها، وإن مدح هؤلاء في امرئ هي شهادة أن كلماتك تحفر بآثارها في الأرض وتنبع نوراً وزهراً، وتغرس حِراب الحقِّ التي تحميه وترعاه.

يا مسكين كنتَ على ذروة سِنام الإسلام، وكِدْتَ تلحق بسيد الشهداء حمزة، فماذا أصاب قلبك حيث صرت أُضحوكة لأهل الشهوات يتلاعبون بك وبكلماتك، فحين تطلقها تذهب هباءً كأنها لم تكن؟ هل عميتْ بصيرتكَ إلى هذا الحد؟ وهل تاهتْ عليك المعالم إلى هذا الدرك؟

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

«فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا. فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَإِذَا بَلَغْتُمْ

ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ»

لم يرتدعِ المَلك، ولا رؤية الآيات نفعته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وكما قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام: ٤]، والمرء الذي لا يرى كل هذه الآيات الكونية التي أمامه لن ينتفع من آيات مُغايرة السنن، فإنَّ السنن وجريانها أعظم الآيات، ففي سورة «الأنعام» طلب المُشركون آية، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧]. ثم بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ ما في الأرض من دوابٍ وما في الجو مِن طيورٍ هي أعظم الآيات لو تفكروا بذلك فقال عقب الآية المُتقدمة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي سورة «الشعراء» جاء هذا بيِّناً صريحاً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الشعراء: ١-٦]، ثم دلهم سبحانه وتعالى إلى الآيات الحاضرة بين أظهرهم وأمام أعينهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: ٧-٨].

وحال الكفرة مع الآيات هو تفسيرها على معنى الطبيعة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤]، وكما قال

سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥].

وإما يُفسرونها على معنى السحر إن كانت خلاف ما يعتادون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر: ١٤ـ ١٥].

وقضية الآيات هي محنَّة هذا العصر، إذ يزعم الزنادقة أنَّ عصر الكرامات قد انتهى، ويجعلون هذه المُقدمة سبباً لدين العلمانية الشِركي، فما دام أنَّ النُّبوة قد انتهت، فانتهتِ المعجزات، فللنَّاس أن يسلكوا مسالك الهَوى في اتخاذ الأديان والمذاهب الباطلة، ثم يجعلون هذا طريقاً للقدح في الدُّعاة والمجاهدين على وجهين؛ **أولاهما**: أنه لا يُوجد عندهم؛ أي المجاهدين والدُّعاة، أدلة على صِدقهم، وأنهم أولياء الله، وأنَّ أعداءهم أولياء الشيطان فيجعلون دين نسبية الحق هو الحاكم بينهم وبين الحق الذي يحمله الدُّعاة والمجاهدين، و**ثانيهما**: هو استحالة نُصرة الحقِّ الضعيف في زماننا أمام قوة الكُفر وجَبروته، لأنهم يعتقدون أنَّ الأنبياء وكذلك أتباعهم لا يحصل لهمُ النَّصر إلاَّ عن طريقِ المُعجزة والكرامة وخَرْقِ العادة، وهو قطعٌ للنفوس من الجهاد ومُقاتلة الباطل ومُواجهته، وتبرير لما يتخذونه من أعمال في الدخول في دين المُشركين والاستسلام لهم.

وللرد على هذا الكفر والضلال مِن وُجُوهٍ عِدَّةٍ:ـ

أما إِنَّ عصر الكرامات قد انتهى فهذه من أكبر الكذب، يقولها الكفار استهزاءً بالدين ويقولها زاعمُو الفكر الإسلامي استسلاماً للجاهلية، فإنه إنْ كان القرآن جعل دواب الأرض وطيور السماء أعظمٍ الآيات كما تقدم في سورة «الأنعام» فإنَّ النَّصر الذي يحققه أهل الإسلام عامةً وأهل الجهاد خاصةً في هذا الزمن هو

من أعظم الكرامات والآيات، ووالله لو كان هناك قرآنٌ ينزل في زماننا لَنَزَلَ في هذه الوقائع الإيمانية قرآنٌ يُتلى، وآيات ربانيَّة من كلماته الحُسنى، فالناظر إلى كيد الكافرين ومكرهم، وما يبذلون مِن مالٍ وجُهُودٍ، وما يأتون به مِن خُطَطٍ وأساليب لرد الإسلام وإنهائه في الأرض لو كان ضد دين غير الله تعالى لانتهى أمره وباد، أو لعاد أهله مجرد أقلية يحافظ عليها كما يحافظ على الرقم الأثرية البائدة، والتي مكانها المتاحف ومقاعد الدراسة، ولكن لما كان هذا هو دين الله فإن هذه البعوث الإيمانية التي تنطلق من هنا وهناك، ومن أماكن لم يكن أحد يرجو منها خيراً، أو من أماكن وقع اطمئنان الكافرين أنها صارت لهم، ووقع بأس المؤمنين منها لدليل على أن سرَّ الآيات ما زال يعمل عمله في هذا الكون، وها أنتَ تراهم يرمون نتائج دراساتهم في ظاهرة الإيمان إلى الزبالة، لأنَّ الهداية والإيمان قذيفة ربَّانية تستعصي أن يفهمها هؤلاء حسب قوانينهم ومناهجهم، فهؤلاء السحرة يؤمنون في لحظةٍ قهرت كل وُعُود فرعون وخُططه، وهذا الفتى أتى إلى الإيمان ليحقق الله وُعوده بدمار فرعون وجنوده ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [القصص: ٥].

فمن أين تأتي هذه الجُموع التي تطير إلى الموت فرحاً بلقاء الله تعالى؟ وهم الذين تخرج أغلبهم من مدارسهم ومعاهدهم، بل نشئوا في أحضانهم وديارهم.

إنها قذيفة الإيمان، وهي من أعظم آيات الرحمن أنَّ سنة الكرامة ما تزال تعمل عملها.

ثمَّ مَن كان يظن أنَّ فئةً قليلةً كاد لها أهل الأرض بأجمعهم حتى يستأصلوا شأفتها ويبيدوا أصلها تنطلق كشجرة سامقة يتفيَّأُ بظلها فِتيان جهاد وشهادة من المشرق والمغرب، فإنْ لم تكن هذه آية فما هي الآيات عند هؤلاء الذين طمس الله بصائرهم.

إنَّ هذا الإيجاد لطوائف الإيمان، وهذا الإمداد لطوائف الجهاد ليدل أنَّ الله حقٌّ، وأنَّ مسيرةَ الأنبياء من خلال هؤلاء الورثة ما زالت تُواصل المسير.

أما إنَّ دين الله لا ينتصر إلاَّ بالكرامة فنَعَمْ، لكنها كرامة الهداية التوفيقية في الثقة بوعد الله ونصره، وبالعمل من خلال السنن، وأعظمها وجود الرجال الذين تهون عليهمُ المصائب والمشاق لتحقيق العِزَّة والنَّصر لهذا الدين، وهذه هي عين ما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه في سعيهم وجهادهم من أجل عِزة الدين ونصره، فالمسلكُ واحدٌ، والآياتُ واحدةٌ، وإن ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون من الآيات لَيَقَعُ للمجاهدين، وهم ينعمون بذلك لكن واقع الحال بينكم وبينهم، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

أما ظنونكم الجاهلية أنَّ رسول الله ﷺ مع أصحابه قد انتصروا بالخَوارق من خارج السنن فهذا ضلالكم في فهم سيرة رسول الله ﷺ، ويكفي أنْ يعلمَ النَّاس أنَّ عموم الصحابة وكِبارهم خُصُوصاً قد أسلموا وباعوا أنفسهم لله تعالى من غير طلب آية من الرسول ﷺ، بل اتبعوا الحقَّ لأنه الحق، وعلموا صدق الرسول ﷺ بدلائل الصدق التي يعرفونها في نفوسهم وفِطرهم، وهؤلاء الأصحاب هم النصر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ [النصر: ١ ـ ٢]، وبهم تحقق النَّصر والتأييد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢].

أما إنه لا يُوجد لدى المجاهدين والدُّعاة دليل صِدقهم مُقابل كُفر مخالفيهم أو ضلالهم، فهذا كله من عمى العيون في عدم رُؤية مَن يقول هذا القول بما يتحقق من آيات على يد الصادقين من الدُّعاة والمجاهدين، ولو تفكر هؤلاء في آيات الله تعالى التي نزلت في معارك وغزوات رسول الله ﷺ وأنزلوها اليوم على الوقائع

والأحداث لرأوا يقيناً أنَّ هؤلاء المجاهدين هم وُراث النُّبوة وأصحاب رسول الله ﷺ، وأما مَن يُقاتلهم هم وُراث بني قُريظةٍ وأبي جهلٍ وأبي لهبٍ، ومُسيلمة الكذاب، وأنَّ المُخذلين هم وُراث عبد الله بن أُبَيْ زعيم المنافقين، لكن أنَّى لهؤلاء القوم أن يقرؤوا كتاب الله قراءة تدبر واعتبار!!

أما قولهم إنَّ عصر الكرامات قد انتهى، ولذلك فلا أملَ بتحقيق النَّصر للمُستضعفين على المُستكبرين، ولا بعودة النَّصر والتمكين بعد هذه الغُربة الثانية لهذا الدين، فإنا نقول لهم إنَّ أوراق التاريخ لم تختمْ، وإنَّ الأيام دُول، وقد رأى أهل هذا الجدل من سقوط دولٍ وقيام أُخرى، ومن انقلابِ أحوالِ النَّاس مِن عُلُوٍ إلى نُزُولٍ ومِن القاع إلى القِمة، وقد بدأت علائم الشيخوخة تضرب في جذور الجاهلية، وجمرات الإيمان تشتعل هنا وهناك، وتوقفت ألاعيب الجاهلية ومكرها عند مُستقرها، وعَلِمَ الفتيان أنَّ تخويف آيات الله بأن ترسخت قاعدة الإيمان والجهاد، فصارت عصية على الزوال والفناء، وما دامت القاعدة قد ترسخت فإنَّ ما بعدها مِن البُنْيَّان سَهْلٌ بإذن الله تعالى، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

إنَّ بشائرَ النَّصر قد أَهَلَّتْ، وعلائم الإيمان قد رفرفتْ راياتها، وريح الجنَّة قد عَبَقَتْ في قلوب ونفوس الفِتيان، وأما نذر هلاك الجاهلية فهي تحيط بهم مِن كُلِّ الجوانب، فأما الجانب الأخلاقي والاجتماعي فحَدِثْ عن قاموس البحر ولا حرج، وأما الجانب الاقتصادي فصار مجرد الصراخ وهبات النسائم تذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال، وأما جنودهم وجيوشهم فصارت حين الفِتيان المحبب، ولو رأيتَ كيف يكون جنودهم، وكيف يفرح المؤمنون بالشهادة لَعَلِمْتَ أنَّ العاقبة للمتقين.

فهل ما زِلْتَ أعمى القلبِ عن رُؤيةِ الآيات؟ وهل ما زِلْتَ في منزلةِ جَهْلِ أبي جَهْلٍ عن تدبُر ما يحيط بكَ؟

أبصرْ يا مَن وقعَ عليك قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥]. فها هو الفتح قد ضرب ناقوسه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة: ٥٢].

و«عسى» في القرآن واجبةٌ كما قال حبر الأُمَّة وتُرجمانه[1].

انزعْ يدك مِن قومٍ ستذهب آثارهم، ومِن يدِ أقوامٍ قد قدمت عليهم النذارة ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]. والحق يُقَوِّمُ هِمَمَ أَهْلٍ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ [العاديات: ١ ـ ٤]، ويُقَوِّمُ هَمَّ أهْلَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

والذي نفسي بيده إنَّ مَن لم يرَ هذه الآيات في نُصرة الله للمجاهدين وأحبابهم، وخُذلان الكافرين والمُنافقين فإنه لن يهتدي ولن يتبعَ الحقِّ حتى لو فُتِحَ له بابٌ من السماء ونادَى مُنادي الحقِّ أنَّ الحقَّ مع المجاهدين، بل والله لو تكلمتِ العَجْمَاوَاتِ بذلك لَرَأَيْتَ هؤلاء القوم يستهزؤون بذلك كما يستهزؤون بكرامات المجاهدين ورُؤاهم التي تجعل ثباتهم كالجبال الرواسي، وإلا فَقُلْ لي بربِّكَ ماذا تقول بمن استهزأ بنجاة أئمة الهُدى وقد كاد لهمُ الكفر كما كادت قريش لحبيب ربِّ العالمين محمد ﷺ في هجرته، فأنجاهم كما نجاه؟

وقُلْ لي بربِّكَ ماذا تقول بمن يستهزئ بمن يصدق بوعد الله تعالى أنَّ الخلافة الراشدة عائدة رغم الظلام وعُلُوِ الكفر فيمضي في طريقه مجاهداً لعودتها تصديقاً لوعد الله؟

---

[1] «الجامع لأحكام القرآن»: ٨/٩٠. «زاد المسير في علم التفسير»: ٣/٢٧٧. «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»: ٢/٣٠٣.

أما أنا فأقول لك ما قاله تعالى في أمثالهم: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾** ﴾ [الحج: ٤٦].

لقد استخدمَ المَلك الجنود لتنفيذ إرادته، وهكذا شر الطُغاة والجبابرة لا يقع إلاَّ مِن خِلال أدواتهم وحِبالهم، ذلك بأنَّ الملوك والطُغاة ليسوا رباً خَالِقاً ينفذ أمرهم بالكلمة، بل هم بحاجة إلى أدوات وجنود تمضي إرادتهم ومقاصدهم في النَّاس، ولولا هؤلاء الجنود والأدوات لم يكن هؤلاء المُلوك والطُغاة إلاَّ كآحاد النَّاس، وقد تقدم في بداية الشرح أنَّ الجهاد إنما يُوجه حِرابه ضدَّ الطوائف، ثمَّ إنَّ آثاره في القتل والغنيمة تُوجه ضدَّهم كذلك كما تُوجه ضدَّ المُلوك والطُغاة والمجرمين الحاكمين، فكل زَعْمٍ أنَّ المجرم هو الطاغية دون الطائفة، أو الطائفة دون الحاشية، أو الحاشية ضدَّ قواعدها وأهلها وشعوبها إنما هو من جهالات بعضِ المسلمين اليوم، ولا يقولها أحدٌ في التاريخ إلاَّ هُمْ، فتجد في حديثهم كلاماً حول الطُغاة وكأنهم يملكون قوامة الربِّ على الخَلق، حيث يقع الظن أنه بزوال شخصِ الطاغية يكون التغيِّير الكُلي، وهذا قولٌ غير صحيح، لأنه كما تقدم أنَّ العلاقة تبادُلِية وتكافُلية بين القائد والأُمة، ومن غير إدراك هذا يصبح فقه الجهاد مجرد نظرية لا يمكن تحقيقها على الواقع، فالذين يحرمون الجهاد إلاَّ ضدَّ شخص الطاغوت أو إلى الجُندي المُقاتل حالهم حل المفتي الذي سُئِلَ عن حُكْمِ المسح على الجوربين، فقال: يجوز لكن له ستة وثلاثون شرطاً، فقال له السائل: هلا قُلْتَ: لا يجوز وأرضيتني.

«فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي. ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ. ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ ارْمِنِي.

فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ. ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ. فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ. فَمَاتَ».

في هذا اللفظ أمورٌ وفوائدُ منها :-

لقد حمِيَتْ نفسُ المَلك واشتدَّ سُعاره في قتل الفتى، إذ ضعف أمله في عودته عن دينه ولم يَعُدْ له مِن هَمٍ إلاّ التخلص منه، وهو الذي رأى أنَّ أثر الغلام قد دخل إلى قصره فآمن جليسه، وحيث وصل دِفق الإيمان إلى مجلسه فما الذي يمنع من أنْ يسيرَ إلى بقية النَّاس، فإنَّ الملك الذي كانت تتنازع إرادته في الغلام مسألتان آلَ الأمر إلى ذهاب أحدهما واستقرت الأُخرى حتى أغلقتْ عليه منافذ عقله وتفكيره، وهكذا هو سُعار الهوى وسورة الغضب تُذْهِبُ العقلَ والفِطنة، وهي سِمَّةُ الكُفر الذي يقفُ مُناوِئاً مُعَادِياً للحَقِّ، فإنه مهما كان صاحب الكفر ذكياً في إدارة شؤون حياته، ومهما كان جارياً على السنن في مُعاداته للحقِّ فإن رفع التوفيق عنه، وسقوطه في ما يدمر عليه مقاصده كائن لا شك فيه، وهذه مقتلته، ولكن قد يتساءل المسلم: لماذا تنفذ إرادة الكافرين في المسلمين؟ وكيف تتحقق لهم مقاصدهم إن كانوا على ضلالة وعدم هداية؟

أولها: إنَّ إرادتهم في المسلمين لا تنفذ إلاّ بسبب عجز المسلمين أو كَسلهم، فحين يكون المسلم كلاًّ غير عامل فإن إرادة المُفسد مهما كانت فهي جارية على اللوح الساكن، وهو السكون الذي يكون بسبب ذهاب القُدرة لمعصية ترك الإعداد أو وراثة كسل الآباء كما هو بعض حالنا اليوم، أو بسبب ذهاب الإرادة وهو كسل المُعاصرين وهو سبب آخرٌ لحالنا اليوم أمام فساد الآخرين وإرادتهم، فهذا الميت الكّل تستطيع دودة الأرض أن تأكله وتفنيه، وتستطيع أن تخط

خطوطها فيه فيتشكل على الوجه الذي تحبه وترضاه، ومن قرأ تاريخ أمتنا المُعاصرة منذ دخول الوهن في دولة الخلافة التُركية رأى أننا مجرد أمة ميتة الإرادة، فاقدة القُدرة، وما كان يقع من عمليات إحياء ومُواجهة لم يكن شأنها إلاَّ على وجهٍ جزئيٍّ يسيرٍ، وعملِ نخبةٍ قليلةٍ، وأما المجموع فهي في حالة جهلٍ وعمًى، وفي وضع موتٍ وخُمُولٍ، وهذا لا يُنكره إلاَّ جاهل بحال الواقع الأمس واليوم.

ثانيهما: دلت سنن التاريخ أنَّ العقل الفِطري خيرٌ من الدين البِدعي، فالعقل الفِطري يُدرك ما فيه مصلحته وما فيه معزته، كما تُدرك هذه جموع العَجْمَاوَات بما أَوحى الله لها، لكن الدين البِدعي يحطم الإرادة، ويُعمي على سالكه الطريق الصحيح، فيُوجب عليه «تديناً باطلاً» أن يسلكَ سُبُلَ الهَلاك والمَفسدة، هذا وقد تحول الإسلام الذي جاء به الحبيبِ المصطفى ﷺ كما في الكتاب والسُّنَّةِ وسيرة النبي ﷺ وأصحابه إلى دينٍ بدعيٍّ فاسدٍ ومُفْسِدٍ عن طريق الصوفية والجبرية والإرجاء، فإنَّ الأُمم بفطرتها كما العجماوات بفطرتها ترد عن نفسها كيد أعدائها، وتُدافع عن مُقومات وُجودها، وتسلك سبيل الغزو حتى لا تُغزى، لكن الدين البِدعي الذي غزا عقول العلماء والعُباد والفقهاء جعل الأُمَّة مجرد لوح ثلج أمام إرادة الآخرين الذين يقرؤون الحياة مِن مُنْطَلَقِ مصالحهم ومُقتضيات عقولهم، فلم ينتصر الدين الباطل على الدين الحق، بل الذي انتصر العقل الفِطري بلا دين على الدين الباطل الذي حَطَمَ الإرادة ونَشَرَ الأوهام وكرس الخُرافة، فالعالِم الذي يُفتِي أُمَّتَهُ أن لا تُقاتل حتى يصل عدوَّهم إلى باب دُورهم إنما هو عالِمُ جَهْلٍ لم يتدبر كلام الله تعالى، فإنه لو طبق الشعارات المرفوعة مِن وُجُوبِ العودة للكتاب والسنة لقرأ قوله تعالى: ﴿**لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾**﴾ [الحشر: ١٣ ـ ١٤].

فهذه الهداية القُرآنية تُعَلِمُ أهلَ الإيمان أنَّ قِلَّة العقل والنظر هو فرضُ نوعٍ واحدٍ للقتال، وهو ارتقاب العدو إلى باب الديار والبيوت، أما أنه نسي: قوله ﷺ أو جَهِلَهُ حين قال: «ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا» فهذا لا شك فيه.

ومَن تأملَ فتاوى القوم هذه الأيام ودينهم الذي يُؤمنون به مِن ترك الجهاد، مع ما تُعانيه الأُمَّة مِن ظُلْمِ أعدائها وغلبتهم وإفسادهم الديار والعِباد، ومثلها الفتاوى التي تُوجب السكوت عن الطواغيت مع كلِّ ظُلمهم وفسادهم يُدرك أن هذا الدين البِدعي شرٌّ مِن العقل الفِطري الذي يملكه العوام مِن أُمتنا حين لا يسلك أحدهم في مذهب هؤلاء الشيوخ والمُفتين فيَعلم من نفسه أنَّ الحقَّ هو عدم طاعتهم، بل الاستهزاء بهم، وأنَّ دين الله لا يرضى السكوت عنِ الظالم ولا الدخول في دين الغالبين مِن المُشركين والمُفسدين.

إنَّ مما ينصر هذا أنَّ الذين يحققون النَّصر ضدَّ الطواغيت، مُشركهم الأصلي وتابعهم المُرتد، إنما هم مَن رحمهم الله تعالى بعدم مُتابعة المذاهب البِدعية، ولا سلوك مذاهب المُفتين الضالين، بل هم يتبعون فِطرهم في إدراك الحقِّ والخير، وفي معرفة الصواب من الخطأ، خاصة أنَّ هذه قضايا فِطرية عُظمى لا تحتاج إلى كبير نظرٍ في إدراك الحقِّ فيها، مع أنه بفضل الله لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجة في بيان الوجه الشرعي الصحيح والمُوافق للعقل الفِطري الصريح.

ثالثها: إنَّ مِن السُّنن الإلهية أن يقع التداول في الخَلق، فجريان السُّنة على معنىً واحدٍ بانتصار الحقِّ دائماً تمنعه من تحقيق الفُرص للمؤمنين بالتمحيص وكشفِ المُنافقين والمَرضى، كما تمنع من تحقيق فُرَصِ الحقِّ بالشهادة والابتلاء واثبات صدق الانتماء والانتساب، ولذلك فإنَّ التداول له حِكمه العظيمة، وهو خيرٌ من غيره، والأمر كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾** ﴾ [الفرقان: ٣٣]، فإنَّ ما يكون مِن سُننٍ هو خيرٌ لأهل الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ: «..**إنَّ أمْرَ المؤمِنِ كُلَّهُ خَيْرٌ، ولَيْسَ ذلكَ إلا لِلمؤمِنِ إنْ أصابَتْهُ**

سَرَّاءُ فَشَكَرَ كانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ فَصَبَر كَانَ خَيْراً لَهُ»[1] ، ولذلك فقد يسقط المرء ويده في يد الله تعالى حكمة من الله وتقديراً للعاقبة التي هي خير من كل وجه للصابرين المحتسبين.

نعود إلى قصة الفتى :-

فهذا المَلك خضع لسورة غضبه وسُعار حمقه بأن يقتل الفتى، حتى إنه سلم نفسه له، وأخضع سلطانه لأوامره في كيفية تنفيذ قتله، ومع أنَّ مقصد الفتى بيِّنٌ من طريقة القتل إلاَّ أنَّ المَلك عمي عن هذا، وأضله الله تعالى عن رُؤية المآل.

في هذا بيانٌ أنَّ سُعار الغضب وسَورته تُوقعان المرء في سبيل الخَصم، فإنه كما قيل: العقل سراج والغضب ريح، فإنه إذا هبت رياح الغضب أطفأت سراج العقل، ومثل الغضب في هذا الشهوة فهُمَا سببان في الوجود للدخول في سبيل الخصم وتحقيق مقاصده من خِلالكَ أنتَ، وهذا الذي يسمونه «نصر بلا حرب» أو «العمل من خلال خطة العدو»، فالخصم لا يحتاج في هزيمتك إلاَّ طلقة النهاية أو طعنة السيف الأخيرة كما يقع مع مُصارع الثيران، حيث يدور الثور ويهيج، وكلما دار وهاج تقطعت عضلاته وأعصابه، وهو مغرور بقوته، ثم ينهار بنفسه حتى تأتيه الضربة الرحيمة النهائية.

والذي يحقق النَّصر في خصمه ومن خلال ضلال خصمه وغضبه أو شهوته هو مَن تعامل مع أقسى الظروف تعامل الواثق بنفسه، والمالك لعقله، وإمام الهدى محمد ﷺ هو سيد الخَلق في هذا، ومَن عَلِمَ حاله في غزوتيْ أُحُد وحُنَيْن رأى صِدق هذا، فانهيار الصفوف وتراجع الجُنود وتساقط الأرض بيد الأعداء ينبغي أنْ لا تهز القادة ولا الأئمة، ولقد وُصِف الصديق؛ وهو خير تابعٍ لخيرِ نبيٍّ، في حروب الردة أنه كلما جاءه خبر الأعداء ازداد ثقةً ودفعاً وإقداماً، وكأنَّ الأخبار

[1] «مُسند أحمد»: ٢٦/٧/ح٢٣٥٣٣ .

تأتي بالنَّصر، ومن رأى حاله وصِدق ثباته وتمالك نفسه في أخبار المُرتدين وإصراره على بعث أُسامة عَلِمَ أنَّ الأرحام عجزت أنْ تلد مثله في أمة محمد ﷺ، فسبحان مَن جعله خيرَ صاحبٍ وخيرَ صديقٍ، وإني لأُشْهِدُ الله أنَّ هذا الرجل لو كان في أُمَّةٍ وحده لَكَفَى بهذه الأُمة فخراً به، والحمد لله أنَّ وُراث صفات الخير من حبيب ربِّ العالمين ومِن صفات صاحبه الصديق ما زالت تسري في هذه الأُمة، فمَنْ سمع أخبار قُطُز في عين جالوت رأى قبس هذه الخِصلة، وهي بفضل الله لا تكون إلاَّ في القلوب التي تثق بوعد الله تعالى.

وأما الصفة الثانية اللازمة لتحقيق النَّصر بهذه المعاني ـ أي العمل من خلال خطة العدة ـ هو عدم التعامل مع الأمور تعامل الثأر والغضب، فإنَّ الثَّأر يعمي القلوب ويذهب الحلم، ويجعل نظر المرء قاصراً على لحظته دون النظر إلى العواقب، لأنَّ همه مقصور على تحقيق الثأر، لكن كيف الأمر بعده فلا فِكْرَ له فيه، فتحقيق النَّصر من خلال هذا الأسلوب يحتاج إلى الصبر والرجل المكيث[1] الحكيم.

والحال مع الجاهلية أنها سعت كثيراً في ما وقع فيه المَلك من سُعار الحق والغضب، وسيدفعها هذا السعار ضدَّ الموحِّدين والمجاهدين إلى ضلالها وهلاكها، كما ستكون مدفوعة في كثير من الظروف بغرور القوة أمام تصورها أنها لا تحتاج إلى كثير مُعاناة لسحق المجاهدين المؤمنين، فستندفع اندفاع الثور، وحينها ستقع الوعود الإلهية بسقوطها، وقد وقع هذا في عصرنا ورآه النَّاس دولاً قوية ثم آل أمرها إلى الانحطاط والضعف، ولكن من شروط تحقيق النَّصر في هذا الباب هو ثبات المؤمنين، وعدم قبولهم بعروض الجاهلية التي يرمونها كالطَعم لأصحاب النفوس الضعيفة، فوجود المنافقين والمرضى هو ما يمنع تحقيق النَّصر

[1] رجل مَكيث: رجلٌ رزينٌ غير عجول.

النهائي والكلي، وهؤلاء عِلَّة هذه الأُمَّة، حيث كانوا على الدوام هم سبب الخذلان، ولقد وُعِد رسول الله ﷺ أن لا تهلك هذه الأمة من أعدائها، ولكن لم يستجب له حين دعا أن لا يجعل بأسها بينها[1].

إنَّ ترفُعَ الخصم عنِ الدنايا وأنصافِ الأهداف، ثمَّ عدم استعجاله في بلوغ أهدافه هو ما يجعل خَصمه يأتي إليه ساعياً وعارضاً الخروج مِن الأزمة كما وقع للمَلك مع الغُلام، أما إنْ كان المرء صاحب هُدى وشهوة، أو ضعفت همته فاستعجل بلوغ الهدف قبل أن تكتمل عوامل وِلادته وتحققه فإنَّ هذا يمنع النَّصر واستنزاف الخصم.

إنَّ ثبات الفتى، وعودته المرة الثانية، ولو احتاج الأمر لَعَادَ أكثر من ذلك حتى يطير عقل المَلك، ويقع في اليأس هو ما دفعه أن يقبل الخُطة التي فرضها عليه، أما هؤلاء الذين يُقعقع لهم بالشنان، ولوح لهم ببعض العذاب، وضُرِبُوا مرةً أو كادوا أن يُضربوا فانهزموا انهزامَ الكلب أمام الزجر فهؤلاء ليسوا وُرَّاث النبوة، ولا هُمْ أهلٌ لأنْ تُرفع بهم هذه الغُربة ولا أن يدخلوا في طبقات أئمةِ الهُدى، وهم أبعد النَّاس أن يتحدثوا عن قضايا الأمة ومقاصد الإسلام العُظمى في وراثة الأرض وإعادة الخلافة.

لقد بذل الفتى نفسه لتحقق الهداية في أهل بلده، وهانت عليه نفسه في سبيل تحقيق هذا النَّصر العظيم، هذا لأنَّ نصر هذا الدين ورِفعته لا تكون إلاَّ بهذا السبيل، فهذا قانونٌ لا يتخلف أبداً، وهذه سِمَّة المعالي، وكلما سمتِ المعالي كان ثمنها أعلى وأنفس، ولما كان مطلب المُؤمن في الأرض تحقيق النَّصر لدين الله تعالى، وبلوغ الجِنان يوم القيامة فإنَّ أهون ما يُقدمه المرء في سبيل هذا هو روحه

---

[1] قال T : «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاَثاً. فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**». «مسلم»: ١٨/١٣/ح٧٢٠٩.

وماله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١]، وحين يحلم بتحقيق أحد هذين الأمرين بغير هذا السبيل فهو حالمٌ حُلْماً منشؤه التُخمة وقِلَّة العقل، فالمؤمن عليه أولاً أن تهون نفسه عليه، ويهون عليه كل شيءٍ حتى يدخل عالم الهداية والقبول وتحقيق الإمامة، وهو أمرٌ جاء مجرى السُّنة التي لا تتخلف، وهو الأمرُ الجامع الذي انتظم فيه أصحاب رسول الله ﷺ، ومَن تفكرَ في رجال الإصلاح والدعوة والتجديد في تاريخ أمتنا عَلِمَ أنَّ هذه هي صِفتهم الجامعة، فلا جَمَالَ الخُطب، ولا بلاغة البيان، ولا صُراخ المنابر كان هو سبب وضع القبول لهم في الأرض وفي القلوب، ولا هي كانت سبباً لرُعْبِ أعدائهم منهم، ولا هي سببَ تأثيرهم في قلوب السامعين وانقلاب أحوالهم بكلماتهم، بل إنها ذِكْرَى الدار الآخرة، ونِسيانهم لحظُوظِ أنفسهم، وخروجهم عن شهواتهم، وترقبهم الشهادة كأنها طوق نجاةٍ مِن لُجَجِ هذه الحياة.

لقد أدركَ الغُلام أنَّ المَلك يريد قتله لا محالة، فلم يهرب من هذا، بل اتخذه وسيلة لتحقيق الخير لأُمته وتحقيق الخير لنفسه، ولذلك فإنَّ من دناءة النفس أن تبذل لخصمك مُراده على حساب دينك، وأخس مِن ذلك أن تستعطفه وأنتَ تعلم أنه لن يرحمكَ إلا بتركِكَ رمة لا قيمة لها لا في الدين ولا في الدنيا، وأخس من ذلك كله أن تستعطفه وأنت تعلم أنه قاتلكَ لا محالة.

حين يتفكر المؤمن أنَّ الأجل محدودٌ، وأنَّ الموت آتٍ لا محالة، فَلِقُوَةِ دينه يجعلِ الموتَ طريقاً لأعظم دارٍ وأقوم مقامٍ وأحسن مستقرٍ.

وحين يعلم أنَّ موته سيكون وُقُوداً للهُدى في قلوب الخَلق، وأنَّ روحه ستسري في النَّاس لتحيِّيهم فإنه لن يضيِّع نفسه في باب الهَوان والرُخص، وبل سيسلك سبيل ذلك راكِضاً مُبتسماً لا يَلْوِي على شيءٍ.

وفي فِعْلِ الغُلام فوائد فقهية أهمها :ـ

جواز العمليات الاستشهادية ، وأنها عَمَلٌ محبوبٌ لله تعالى ، وهي سِلْكٌ قديمٌ ، تتغيَّرُ صوره بتغيُّر وسائل الحياة وأساليب الجهاد ، ولا يعلِّقُ أحدٌ على تغيُّر هذه الأساليب الحُكْمَ ، ومَن فَعَلَ ذلك فقد أخطأ ، فهذا الفتى دل المَلك على طريقة قتله ، وأعطاه السهم مِن كِنانته ، أي إنه أعطاه الأداة وعلمه كيفية استخدامها ، ولا فرقَ في الشرع بين المُباشر والآمر والردء في باب القَتل ، فمن ظنَّ أنَّ هناك فَرْقاً بين ما فعله الفتى وبين أن يطعن نفسه هو بالسهم في تحقيق صورة الفِعْلِ فقد أخطأ ولم يَدْرِ مسالك النظر الفقهي ، وقد كتبَ في هذا من أهل العلم ما يكفي فيُراجع في مظانه.

في هذا جواز تقدمة طليعةٍ أو ما في معناها ولو تيقن قتلها جميعاً ، إذ قد يحتاج الجيش إلى قذف طليعة لا يعود منها أحد لتحقق مقصدٍ في حربٍ مِن الحُروب ، وهذه لها صور كثيرة وتوجيه ذلك أنَّ الفتى جرَّ الملك لقتله لتحقيق مقصدٍ له ، فإنْ جاز هذا لنفسه جازَ لغيره ممن يبذل نفسه لذلك ، فلو أُلقي بطليعة للموت أو ما في معناها لجر الخصم إلى قتله واستنزافه جاز ، فمَن طَعَنَ على المجاهدين مقاصدهم في جرِّ الأعداء إلى معركة يرجون منها النَّصر ، وكان في هذا الفِعْلِ ضرراً أو قتلاً يُصيب المسلمين فقد عاب بجهلٍ وغَلَطٍ ، وهذه تختلف عن الفائدة الأُولى.

هل يجوز لسجينٍ أن يقرَّ بالصدق لعدوِّه فيما كان يُريد فعله أو تمَّ فِعله ولو أدى هذا لسجنه أو قتله ، إذا كان في ذلك إظهار مقصدٍ من مقاصد الإسلام ، كإثبات رغبة المؤمنين بالجنَّة ، أو إثبات شجاعة المؤمن في المَلمات؟

الجواب : هذا الحديث يُثبت جواز ذلك ، فإنَّ الفتى صدقَ المَلك في ما يلحق به الأذى وهو القتل لتحقيق مقصدٍ ديني.

هل يجوز أن يُعلَّم الكافر الرقى الشرعية من آياتٍ وأحاديثٍ؟

الجواب: هذا الحديث يُثْبِتُ جواز ذلك، فقد علَّم الغُلام الملك كلمة «بسم الله»، وهي في ظاهرها تحقق مقصد المَلك، وكما جازَ أن يُرقى مِن المُسلم، جاز تعليمه بأنْ يرقي نفسه، وإنْ وقع هذا فإن في ذلك إثبات صدق نبوة النبي ﷺ، فما جاء به من كلمات هي الشفاء لأبدان النَّاس وأمراضهم فهي الشفاء لقلوب النَّاس وعقولهم وأديانهم.

لكن هناك مسألة في هذا الباب، وهي تتعلَّق بتعليم الغُلام الملك هذه الكلمة ـ بسم الله ربِّ الغلام ـ ليتحقق مقصده في قتل الفتى، هل يعني أنَّ الكلمات الشرعية تُفيد الكافر في تنفيذ مُراده في المؤمن، أم أنَّ هذه الكلمة لم يكن لها تأثيرٌ في قتل الغُلام ولم يكن مُراده إلاَّ أن يسمع النَّاس هذه الكلمة مِن فمِ الملك، فيعلمون أنَّ هناك رباً غير هذا المَلك، وهو فوقَ هذا المَلك، بلِ المَلك يحتاج إلى اسمه الكريم ليحقق مُراده، فيؤمن النَّاس بهذا العلم؟

الآيات القرآنية والأحاديث النَّبويَّة تدل أنَّ دعاء الكافرين في المؤمنين غير مقبول، بل إنَّ دعاءهم غير مقبول إلاَّ وقت الاضطرار إذا أخلصوا لله في السؤال، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: ٥٠]، وهذه وإنْ كانت في سِياق دعاء الكافرين يوم القيامة للخروج من النَّار، كما قال تعالى فيها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: ٤٩-٥٠]. هذا في سورة «غافر»، وفي سورة «الرعد» قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝١٤﴾ [الرعد: ١٤]، وهي في سياق دعاء الكافرين لآلهتهم الباطلة كما هو بيِّنٌ، لكن إذا عُمِّمَ اللفظ كان دالاً على

رد دعاء الكافر مُطلقاً، وأما استجابة دعاء الله للمُشركين حال الاضطرار إن أخلصوا فهو بيِّنٌ في آياتٍ عدَّة ففي سورة «الأنعام»: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤]، وفي سورة «الروم»: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤]، وفي «العنكبوت»: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦]. وآيات أخرى.

أما عدم استجابة دعاء المُشركين في المسلمين فقوله ﷺ: «..**فَيُسْتَجَابُ لِى فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»[1]، وذلك رداً على دعاء اليهود على النبيِّ ﷺ.

ولذلك فالذي يميل إليه القلب أن هذه الكلمات ـ بسم الله ربِّ الغلام ـ لم يكن لها تأثير في القتل، بل هي على المعنى الثاني وهو تحقق مُراد الغُلام، بأن يقولها المَلك ليسمعها النَّاس وتتحقق هِدايتهم، وأما حصول القتل فالله أعلم أنه وقع بسبب أمرٍ آخرٍ وهو عدم الدعاء، إذ لم يدع الفتى بكلماته ـ اللهم اكفنيهم بما شئت ـ فلم يكن هناك حائلٌ يمنع مُراد المَلك في قتل الفتى، وفي قصة سعيد بن جُبير وتخفيه مِن الحَجاج ما يشهد لهذا، فإنه كان يحج كل عامٍ وهو متواري، وفي كل عام كان يسأل الله أن يعود إلى الحج العام المُقبل، قال: «ثم استحييت أن أدعو بذلك»، فكان ما كان من وقوعه في قبضة الحجاج واستشهاده. فإن قيل كيف احتججتَ بهذا إذاً على جواز تعليم الكافر الرقية التي تنفعه، وأنت تقول: إنها لم يكن لها تأثير في الفعل. فيُجاب: إنَّ الرقية دعاء، وفي الكلام ما يدل على

[1] «البخاري»: ٥/٢٢٤٣/ح٦٠٣٠. أطرافه ٢٩٣٥، ٦٠٢٤، ٦٢٥٦، ٦٣٩٥، ٦٤٠١، ٦٩٢٧.

قبول دعاء المُشرك المضطر إنْ أخلص، فالكافر حين يَرقي نفسه مضطراً من مرضٍ أو خوفٍ يُستجاب له.

والذي يحتج به أن إجراء الكلمات الشرعية على لسان الكافر لا مانع منه أبداً في الشرع، ولا يُوجد في الكتاب والسنة ـ والله أعلم ـ على حظره، إنما الممنوع السفر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة إهانته.

هذا مع بيانِ الفرق بين الاحتجاج والتدليل، وبين الاستئناس والمُقاربة، فبعض الأدلة يُستقوى بها في بابٍ لا يوجد أصلٌ صريحٌ يُحتكم إليه، وكما قيل هناك أدلة للاحتجاج وهنا أدلة للاعتضاد.

«فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ، وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ. وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا. فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا. فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي. فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

بهذا المشهد الجامع الهائل انتهى الخبر، وهو مشهدٌ يجمع عُمْقَ الإيمان، وطُغيان وبطش الجاهلية المُستكبرة، وكما فيه منظر النيران العظيمة المُشتعلة، فيه كذلك منظر الطفولة التي تستعلي عليها بإيمانها، وكأنَّ حنان الطفولة ورِقتها أقوى وأمتن من طيش النَّار وتأجُجِهَا، فقطرات الماء التي فيها الحياة قادرة أن تحيل النَّار إلى رمادٍ باردٍ لا حياة فيه.

لقد وقع المحذور على رأس المَلك، فقد كانت حياة الغُلام ألماً عليه، وعذاباً يُعاني منه، وغضباً أنَّ غلاماً يخرج عن سُلطانه وتألُهه، وكان موته أشد عذاباً

وأقسى ألماً وأوقع غضباً، فالإيمان منتصرٌ على كلِّ حالٍ حتى وهو يرحل شهيداً ثابتاً على الحقِّ، والباطل مهزومٌ حتى ولو رفرفت رايته فوق جماجم النِّساء والغِلْمَانِ والشيوخ، لأنَّ الميزان في ذلك ليس هو من يبقى ومن يذهب، ولكن الميزان هو مَن الذي رحل باختياره إلى الجِنان، ومن الذي انتكس في معصية في الدنيا فباء بغضب الله والنيران يوم القيامة.

لقد ماتتِ الجموع المؤمنة، فهل خُلِّد الملك؟ وكم بين أن يموت المؤمنون ويلحق بهم أعداؤه بعد ذلك؟ أهي قرون أم سنين أم سيقولون يوم القيامة: ﴿ **نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾** ﴾؟ [طه: ١٠٤].

لقد كان المَلك بكلِّ جَبَرُوتِهِ عاجزاً خسيساً حسيراً حقيراً، فكل جنوده المُدججة بالسلاح، وكل نيرانه التي خدت لها الأخاديد لم تستطعْ أنْ تُرْعِبَ طفلاً مؤمناً، ولا أن تدفع امرأةً لتلحق به إلى الكفر، لأنَّ غشاوة الكفر زالت عنِ العُيون، فأبصرت نور الإيمان، واستقر في القلوب برد اليقين، فهي كلمة المُستضعفين الخالدة على مدار التاريخ وفي عينه: أَحَدٌ أَحَدٌ تستعلي على الطغيان وتكتب دوماً بالألم والمُعاناة والمحنة.

هل قدَّم الغُلام خيراً لهذه البَلدة، أم أنه جرَّ عليهمُ المصائب والحرائق والقتل والدمار؟.

لقد فعلَ الغُلام فِعْلَتَهُ، فلَحِقَتْ به الجُموع مأسورة بلذة الإيمان، فكان الحرق والموت والعذاب، فهل في ذلك مصلحة للنَّاس أم أنَّ فِعْلَ الغُلام هو المفسدة التي يُتقى شرها وتُبعد على كلِّ حالٍ؟.

هنا ميزانان وكيلان، فأما في ميزان الله؛ وهو ميزان عبيده وأوليائه فإنَّ الغُلام أحْسَنَ كلَّ الإحسان، وأوفى على كلِّ غايةٍ في بلوغ مراتب الرضى الإلهي والسعادة والفوز، وبلغَ غاية مصالح الوُجود التي تهون أمامها كل مصلحة، لأنَّ

ما حققه هذا الغلام إنما هو مقصد خلق الله للوجود فهو القائل: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧] أي لولا إيمانكم، فإنَّ الإنسان لا قيمة له ولا أهمية له، بل إن دواب الأرض خير منه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٤] إلاَّ إنْ أتى بالإيمان، فالله لم يخلقِ الخَلق ليأتوه عند موتهم بالأموال والمناصب والعُروض، بل خلقهم ليأتون إليه وفي صدورهم الإيمان وفي صحائفهم الأعمال الصالحة، كما قال جلَّ في عُلاه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. أما لو جاء بكلِّ ما في الدنيا مِن نِعَمٍ من غير الإيمان فلن يُصْرَفَ عنه عذاب الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦].

فبهذا الميزان قد أنارت تلك المدينة، وصلح شأنها، وأتاها العِمران الحقيقي، وعمَّ على أهلها الرِضوان الربَّاني، فيا لسعد أهلها، ويا لفوزهم الذي أصابوه.

أما في ميزان الأهواء والشهوات، وميزان أهل الباطل والجهالة، وميزان أعداء الرسل فإنَّ هذا الغُلام قد جرَّ الخَراب والدمار على أهل هذه البلدة، فهي القرية الآمنة الساكنة، حيث يعيش أهلها في أمانٍ واطمئنانٍ وسعادةٍ، يأكلون ويشربون، ويلهون أيام لَهْوِهِمْ، قد اجتمعوا على أمرٍ واحدٍ، فلا خصومة ولا مُنازعة، وإذ هم كذلك جاءهم مَن فَرَّقَ الجُموع، ونشر التنازع بينهم وبين الجنود، فثارتِ الأحص والأحقاد حتى آل الأمر إلى هذا البطش المُستكبر الحقود، وكل ذلك بفعلِ الغلام الذي لم يقدِّرِ الأمور تقديرها، ولم يُراعِ مصالح النَّاس؛ ضعفائهم وأطفالهم، فجرَّ الخَراب على بلدته.

أما كان يسعه ما وَسِعَ الراهب حيث اختلى لنفسه حين رأى ضلال قومه ولم يُوافقهم، فانسحب دون ضجة ودون إفسادٍ لحياة النَّاس؟.

إنَّ هؤلاء القتلى بالنيران هم ضحايا «تهور» الفتى، وهو الذي سلمهم لُقْمَةً سائِغَةً لأيدي أعدائهم يفعلون بهم ما يشاءون.

وعلى مِنْوَالِ هذه التقريرات تمشي جهالات العقول العفِنة الضالة تقذف الفتى بكلِّ التهم، وتلقي عليه كل جرائر إجرام المَلك وجنوده، وكأن بطش الملك وطُغيانه واستكباره أمرٌ معهودٌ معلومٌ وغير مُستنكرٍ، لكن الاستنكار يكون ضدَّ مَن قدحَ في كُفره وطُغيانه وكذبه.

هذا ميزان الباطل يلتقي مع الشهوات التي تحرقها محنَّة الإيمان، ولا تكون الجنان إلاَّ لمن ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠] لأنَّ بعد ذلك ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١].

ماذا نفعلْ في زمانٍ صارت كلمة الدين، وقرآن ربِّ العالمين، وأحاديث رسول الله ﷺ، وأُصول الفقه المحدثة تخدم هذا الميزان، وتحتج له، ونزعم أنه هو الميزان النبوي الذي نشره في العالمين؟!.

وهل نحن في زمانٍ نحتاج فيه إلى هذا الصبي في حِضْنِ أُمِّهِ ليقول للفِتيان وأئمتهم وتابعيهم: «يا قوم إنكم على الحقِّ فاصبروا» أم أنَّ عقل شيوخنا ودين مُفتينا وعلوم دعاتنا قصرت أن تبلغ مبلغ هداية هذا الصبي؟.

إن كانت أُمَّة محمد ﷺ تُريد العِزَّةَ في الدنيا فإنها لن تحققها إلاَّ برضى الله تعالى، ولن تحقق هذا الرضى إلاَّ بأن تتخلى عن موازينِ الجاهلية وقِيَّمِهَا، وأن تُعِيدَ قراءتها لمواقفها وأعمال أبنائها حتى تستقيم على موازين الإيمان، ذلك بأنَّ الكفر قد استعلى وتمادى في عينه، وبسط سلطانه بالحديد والنَّار، ولن يتم كسر هذا ولا الخروج منه إلاَّ بفتيانٍ كهذا الغُلام، وبأُمَّةٍ مثل أهل هذه البلدة، وحينها سيمضي البعض إلى النيرانِ شهداء، ومَن سيبقى سيكون عزيزاً مهاباً ترتجف منه أوصال المجرمين.

مَن نظرَ في هذه الحادثة، وفي سيرورة التاريخ عَلِمَ أنَّ خط الكفر المُعادي لخط النُّبوة وأتباعها هو الأكثر دموية وبطشاً، فإنَّ أصحابه قومٌ مجرمون، لا يُراعون ضعف الضعفاء من النساء والأطفال والشيوخ، وفي هذا ردٌّ على مَن زعمَ أنَّ إقامة الحُكم الشرعي في الأرض سيُسبب الحروب والدماء والألم همْ قومٌ كذابون دَجالون، لأنَّ أقسى الحروب وأشقاها وأكثرها دموية في تاريخ البشرية هي الحروب التي شنت بين الخطوط المجتمعة على مُعاداة النُّبوة والأنبياء، والتي تستقل في التشريع بما يسمونه بالإبداع الإنساني، ومَن تأملَ هذا العصر وما نتج فيه من حروبٍ ودماءٍ يعلم أنَّ رجالها وقيادتها ووقودها هم أعداء النُّبوة، وزاعِمُو الإنسانية وحقوق الإنسان، بل مَن تأمل المظالم الكُبرى التي تحيق بالشعوب نفسها إنما يجدها بسبب أقوامٍ يحكمون استقلالاً عن حُكْمِ الله وشريعته، ومِن هؤلاء يقع أعظم الظلم والفساد، وأعظم الدمار والهلاك، لكن هذا الخط المجرم ومَن وراءه مِن السحرة الكذابين في وسائل الإعلام لا يلتفتون إلى ذلك أبداً، بل يلقون على كل هذه الوقائع الستر، فإذا انتصف أهل الدين من خصومهم بعملٍ فيه إذهاب لمجرمٍ أو مجرميْنِ نشروا وصرخوا وألَّبُوا، فمن يُقْتَلْ على يد أعداء الأنبياء لا يُعد ولا يُقام له أي ذكر ولو كانت الأعداد بالآلاف أو عشرات الآلاف، ولو كان القتلى مِن الأطفال والشيوخ والنِّساء والمُستضعفين، أما آحاد قتلاهم فهو صاحب الشأن والذكر حتى لو كان الجنود والمُقاتلين.

إنَّ أعظم الحروب وآلمها إنما أصحابها همُ المُنكرون للنبوات، والمُعرضون عن شرع الله وحُكمه، ثم يأتون بعد ذلك يزعمون أنَّ الدين يُفرق تفريقاً يُؤدي إلى خَراب العالم وفساده، وكأنَّ عالَمَ هؤلاء غير دين سليم صالح معافى.

إنها أكاذيب قومٍ مجرمين، ولا يُقال عنها أخطاء يقولها قومٌ لا يعلمون، بل هي جزءٌ من حربِ الكفر ضدَّ الإيمان، وحرب الفساد والمفسدين ضدَّ الإسلام

وهُداه، ولذلك فإنَّ الساكتين عن إجرام هذا الكُفر من السحرة هم أشدُّ فساداً مِن المجرمين أنفسهم.

إنَّ سجون الكفرة المُجرمين تعجُ بالمظلومين، وحين يُؤسر واحدٌ مِن جنودهم يُظهرونه كأنه البريء المُسالم، وكأنه أُخذ وهو يُطعم الطعام للجِياع والفقراء.

صورٌ عديدةٌ تبيِّن لصاحب العقلِ أنْ لا يكون مُستضعفاً تابعاً لهؤلاء المُستكبرين، ومَن وقع في ذلك فلن يضر إلاَّ نفسه، وأول الطريق هو أن يصرخ في هؤلاء السحرة من الإعلاميين بقوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤].

«آمنا بربِّ الغُلام» هذه كلمةٌ تُعبر عن حقيقة واقع الحقِّ في هذا الوجود، فالحق ليس شيئاً مُطلقاً في الفضاء لا واقعَ له كما يُريد أهل الضلال تكريسه، وذلك كزعمهم أن الإيمان في القلب، أي أن الإيمان شيءٌ مجردٌ، أو فكرة تائهة ليس لها مستقر إلاَّ في العقلِ، أما أديانهم الباطلة فإنَّ من حقها أن تكون دولةً ومؤسسةً وقادةً وجنوداً ومالاً وسلاحاً.

هكذا يُصبح الحق مجرد شيءٍ معرفيٍّ مهزومٍ، فينكس إلى داخله، وفي بواطن أصحابه، أما هياكل الحياة فهي للباطل، ففي هذا اللفظ: «آمنا بربِّ الغُلام» ردٌّ على هذه المعاني الباطلة، إذ صار الإيمان واقعاً، وله انتسابٌ، فالله الذي نُؤمن به ربّاً وإلهاً لا بدَّ له؛ أي الإيمان، مِن مِثالٍ نأْوِي إليه ونسير على مِنواله ونتبع خُطاه، وهذا ما يحقق الصراع بين الإيمان وبين الكفر، وحين يتلاشى الإيمان إلى مجرد شيءٍ معرفيٍّ في القلوب فإنَّ سلطان الكفر يستقر ولا يخاف الغائلة.

«آمنا بربِّ الغُلام» هي إعلانٌ قلبيٌّ وسلوكٌ عمليٌّ تعني الخروج من دين المَلك إلى دين الغُلام، ومن طاعة المَلك إلى طاعة الغُلام، ولذلك لما أَرسل سليمان عليه السلام رسالته إلى بلقيس قال لها: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٣١]، ومَن تأملَ سيرة النبي ﷺ منذ مبعثه وجدَ هذا جلياً، أي أن الإيمان به

يعني الخروج مِن دينٍ إلى دينٍ، ومِن سلطانٍ إلى سلطانٍ، ومن طاعةٍ إلى طاعةٍ، ومن إتباعٍ إلى إتباعٍ آخرٍ، وهذا لا يقوله الداهي إن كان مَلِكاً كسليمان عليه السلام فقط، بل يقوله الداعي للنَّاس وهو وحيداً كما قال مؤمن آل فرعون لهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨]، أما أنْ يزعم المرء الإيمان مع بقائه تابعاً لسلطان الجاهلية وأئمتها الطواغيت فهذا إيمانٌ مدخولٌ ولا قيمةَ له، إذ مجرد المعرفة أنَّ رسول الله حقٌّ لا تنفع صاحبها، فهذا هِرقل قال كلمة الاعتراف بصدق الرسول فهل نفعه ذلك؟ وهؤلاء اليهود الذين شهدوا أنَّ محمداً رسول الله ﷺ لم يقبل منهم هذا إلاَّ بأن يتابِعُوهُ، فلما امتنعوا كان هذا دليلَ كُفرهم به.

«آمنا بربِّ الغُلام» انتظامٌ في طائفةِ الحقِّ، ولحوقٌ بها، وكفرٌ بسواها؛ رجالاً وقادةً وأنظمةً، وهي لحوقٌ بجنود الإيمان وأئمتهم وقادتهم.

«آمنا بربِّ الغُلام» هي مقالة إبراهيم عليه السلام وأتباعه حين قالوا لقومهم: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]. وهي مقالة كل طائفة تخرج عن حُكم الجاهلية إلى حُكم الله، وعن طائفة الكفر إلى طائفة الإيمان، فتغضب عليها الجاهلية، وتُعاملها طائفة الكفر، فتسير قافلة التاريخ لتمتلئَ صحائفه بالأولياء والصالحين، وتضيء حروف الإيمان جبهاته، فيمشي القاتل والمقتول إلى الغيب حيث المستقر النهائي لكلِّ أحدٍ، وأما ما يبقى في الأرض فهو ما قاله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

هم يبقون كنوزاً يتناوشها الورثة، فيتهارشون عليها تهارش الثيران والحُمر، ويخلفون وراءهم حجارة صماء تدل للمُعتبرين أنْ كان هنا طواغيت يَسومون

الناس سوء العذاب، ويكذب الخراصون الدجالون أنْ كان هنا ثقافة وحضارة، وما هي إلا دلائل العذاب والخِزي والطغيان.

هكذا تمضي الحياة صِراعاً بين دينين، وبين ثقافتين، وبين منهجين، فما الراقص فرحاً على أشلاء المُستضعفين بجانٍ إلاَّ لعنات الله والملائكة والمؤمنين، وما المحروق والميت والمقتول في سبيل الله بمفارق ما يحزن عليه، بل هو يستبشر بنعمة الله، نمارق في النُّور، وكل أمانيه أن يعود مرةً ومرةً ومرةً فيُعِيدِ الكَرة على نفس السبيل ومِنْوَالِ الطريق، وليس له من نداء إلاَّ لإخوانه من بعده هلموا إلينا فقد حطت ركائبنا في الرضوان، ورأينا ما وعدنا ربنا حقاً.

هذه دعوة الفتى، وهي منهاجه، يقول لهم: تريدون موتي وقتلي، وأنا كذلك أُريده، ولكن اعلموا أنَّ موتي هو ما تحذرون، وسيأتي منه ما يقلب حياتكم جحيماً، وحين أكون حياً قد أكون وحدي، لكني حين أموت ستزهر الأرض بآلاف الحِراب التي تُدْمِيكُمْ وتسيءُ وجوهكم، ذلك لأنَّ دمي هو وَقود الإيمان للأجيال، أما إن أبقيتموني فوالله لن أسكتَ عن كلمة الحقِّ ما وجدتُ لها مُتَسَعاً ومكاناً، فماذا تختارون؟ فإن كل اختياراتكم لكُفركم لها سبيلٌ واحدٌ هو العذاب ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٧٧].

هذه دعوةُ الفتى لكلِّ فتى أن لا يخضع لطاغوتٍ، ولا يستكين لطاغيةٍ، ولا يخاف إلاَّ مِن الله ووعيده، وليمضِ إلى ربِّه لأن في موته خلوده.

هذه دعوةُ الفتى تصنع كل فقر على دين الله أن جر الشهادة للخلق فساد، وتكذب كل من زعم أن الموت في سبيل الله خسارة.

هذا الفتى يبني عمائر الإيمان، ويُسطر حروفَ التاريخ، ويشق في الأرض خدود الهُدى، وأما هم فيريدون عمائر الزجاج وأبنية الهوى والشهوات، فشتان بين دربِ فتيان الإيمان ودربِ الناكبين إلى الشهوات.

فيا أيُّها الفِتيان قد بان السبيل، وتوضحت معالم الإيمان، فلم يَعُدْ في الأمر خفاءٌ، فما طريق الحق بملتبسٍ إلاَّ على صاحب هوى، فشُدُّوا العزائمَ إلى مقامات الجِنان، وإيَّاكم وموت العزائم والرضى بالدون، فإنَّ في الجنَّة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله.



☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆

قائمة المراجع

◘ «**الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**» لأبي حاتم البُستي محمد بن حبان بن أحمد بن حِبَّان بن معاذ بن معبد التميمي. دار الفكر/ بيروت. ١٩٩٦م.

◘ «**البداية والنهاية**» لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي. طبعة مكتبة المعارف/بيروت. الطبعة السابعة ١٩٨٨م.

◘ «**الجامع لأحكام القرآن**» لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القُرطبي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. ١٩٨٥م.

◘ «**الجامع الصحيح** وهو **سُنن الترمذي**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وفؤاد محمد عبد الباقي. طبعة دار عمران/بيروت.

◘ «**السنن الكُبرى**» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت ١٩٩١م.

◘ «**المُستدرك على الصحيحين**» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بـ "الحاكم" ويُعرف بـ "ابن الربيع". طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

◘ «**المغازي النَّبويَّة**» لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء المدني. طبعة البابي الحلبي/مصر.

◘ «**المغني على مختصر الخرقي**» لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي. طبعة دار عالم الكتب. الطبعة الثالثة ١٩٩٧م.

◘ «**جامع المسانيد والمراسيل**»، «**جامع الأحاديث الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير**» لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن همام الخضيري السيوطي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

◘ «**زاد المسير في علم التفسير**» لأبي الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمد الجوزي القرشي البغدادي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٨٧م.

◘ «**سُنن أبي داود**» لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

◘ «**سُنن الترمذي**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

◘ «**سُنن الدارمي**» لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٦م.

◘ «**صحيح البخاري**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة البخاري. طبعة دار ابن كثير. الطبعة الخامسة ١٩٩٣م.

◘ «**صحيح مسلم**» لأبي الحسين مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري، طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٢م.

▣ «**غذاء الألباب شرح منظومة الأداب**» لأبي العون شمس الدين محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني النابلسي الحنبلي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ٢٠٠٢م.

▣ «**مجمع الأمثال**» لعبد الغني الغنيمي الدمشقي الحنفي الميداني.

▣ «**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**» لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

▣ «**مراتب الإجماع** في العبادات والمعاملات والمُعتقدات **ونقد مراتب الإجماع لابن تيمية**» لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. طبعة دار الأفاق الجديدة/بيروت. ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

▣ «**مسند أحمد**» لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

▣ «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**» لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ٢٠٠٣م.

☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆

الفهرس

